صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

* 36 صفحة *

العربي القديم

شعارها
عدو جدك ما يودك

* العدد الثاني عشر - حزيران/ يونيو 2024 *

* Issue 12 June 2024 *

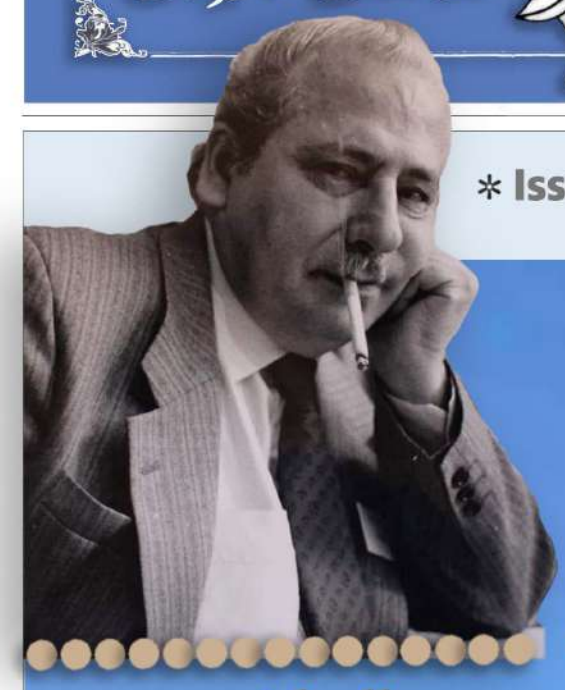

نجيب الريس يحتفل بنهاية دولة العلويين

أصوات نسائية من أدب اللاذقية

في بيت الموسيقار محمود عجان

أحمد رحال مدينة كل الأطياف وكل الأوجاع

حنّا مينة: اللاذقيــة مدينتــي

الملف

سعد فنصة: اللاذقية والأبجدية وأوغاريت

إيمان الجابر حكايات أجيــال يجب أن تــروى

أحمد عسيلي بقايا مدَنيّة مُهدمة

اللاذقية

معشوقتنا البحرية

عدد خاص

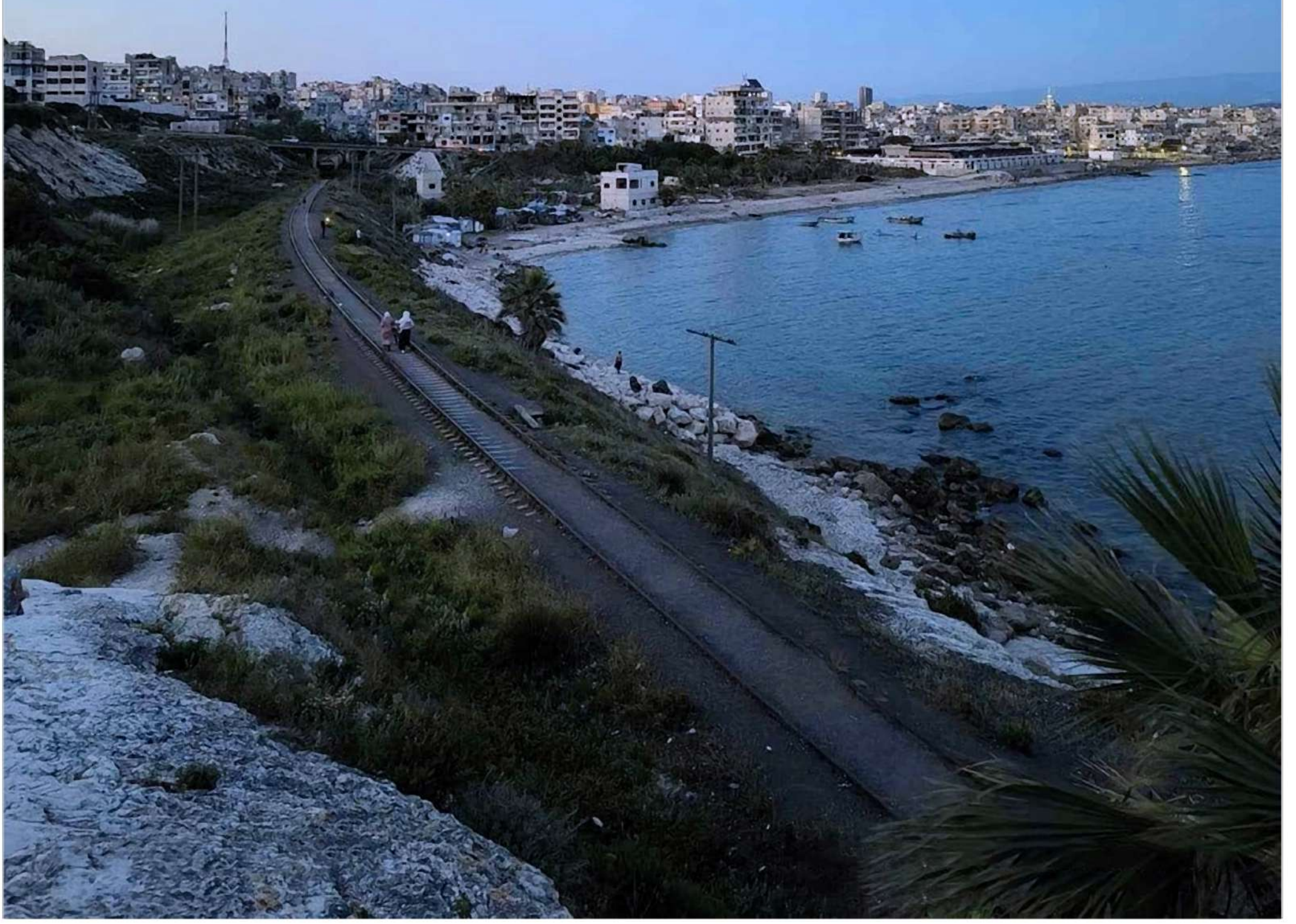

لعبة الأيام

اللاذقية قبل بوحيدر وشكيبة

د. محيي الدين اللاذقاني

في اللاذقية ضجّة..؟ ومتى كانت اللاذقية بلا ضجّة أو ضجات!

ليس في زمن أبي العلاء المعري فقط، بل من زمن الإمبراطور سلوقس الذي سمّاها في القرن الرابع قبل الميلاد "لوديكيا"؛ ليخلّد بها اسم أمّه الحنون، كما أطلق اسم زوجته أفاميا على منطقة قربها، ومنذ ذلك التاريخ تعرّض اسم عروس الساحل وتاريخها للتحريف على مدار العصور، كما تعرّض تاريخ سوريا كلّه للتزييف؛ نتيجة لصراع الطوائف والملل والنِّحل، الذي يعمل وفق القاعدة المعروفة: كلما جاءت أمّة لعنت أختها، وأخفت آثارها، وأخبارها، دون أن تدري من المخطئ، ومن المصيب في تلك المتوالية التاريخية التي حيّرت المعرّي قبلنا:

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدقّ، وذا بمئذنة يصيح
كُلٌ يعظّم دينه، يا ليت شعري ما الصحيح؟

وقد كان المسلمون، منذ استقرّت أمورهم أمّة، ولم أسمع عمّن يسميهم في بلاد الإسلام طائفة، إلا بعد أن اطلعتُ على مقال بجريدة (الجزيرة) الدمشقية، يعود تاريخه لعام 1935، أي إلى ما قبل إلغاء "دولة العلويين" في اللاذقية بسنة، وإلحاقها بالدولة السورية، أيام الانتداب الفرنسي عام 1936، والمقال لكاتب من الفئة التي يسمّونها الوجهاء، وكيف لا يكون كذلك، واسمه عابدين بيك حمادة على سنّ ورمح! وهو بالمناسبة من الذين يحتقرون الوظائف، ويشفقون على أصحابها "مهما سمت وكبرت".

وعلى طريقة الوجهاء الذين لا يتركون لك فرصة للتخمين بأغراضهم؛ من شدّة حبّهم للاسترسال، تدرك منذ السطر الأول أن البيك – الكاتب، وهو أحد المتنوّرين في عصره صاحب مظلومية عميقة لكنه، ورغم تنوّره المخلوط بنزعة قومية، تُحرَج من الكتابة عن مظلوميته؛ خوفاً من اتهامه بالطائفية؛ لذا يفتتح مقاله الهام بالتعبير عن تلك المخاوف: "قبل أن نعرض لهذه السياسة المُتبعة في حكومة اللاذقية، نحو الطائفة الإسلامية نقول سلفاً لمن سيزعم، أننا نثير قضية طائفية: إننا لا نأبه لهذا القول؛ لأنّ حال المسلمين في حكومة اللاذقية، أصبح من الجريمة والخيانة معاً السكوت عنها.."

وقد كان الأمر مقلقاً فعلاً، ويصعب السكوت عنه ف "الطائفة الإسلامية - ويُقصَد المسلمون السُّنة"، في دولة العلويين الساحلية، هي التي تملأ خزينة الدولة بالضرائب، وتقوم بكل الواجبات، لكنها لا تحصل إلا على اليسير من الحقوق، وإذا تقاعد موظف منها، أو مات يملؤون الشاغر بمسيحي؛ لأنه لم يكن عندهم كفاءات علوية في ذلك الزمان، وما كانوا يجرؤون؛ بسبب الانتداب الفرنسي على ترقية العريف إلى لواء، والذي لم يدخل الجيش أبداً إلى فريق، كما صاروا يفعلون، أيام المقبور في القرداحة، الذي كان جدّه أحد الذين طالبوا بالانفصال عن سوريا، والاحتفاظ بالدولة العلوية، وهو ما كشفه المندوب الفرنسي في مجلس الأمن في أحد ردوده على الجعفري في الشهور الأولى للثورة، ومن الغريب في هذا الأمر المريب أن فرنسا ما تزال تعتبر معظم ملفات الانتداب وثائق سرية، لا يجوز الاطلاع عليها، رغم مرور أكثر من قرن على ذلك الانتداب الذي جعل حكم العصابة الأسدية بعض السوريين يتمنون عودته.

وتتزامن هذه المقالة مع الرسالة الشهيرة التي أرسلها الشاعر بدوي الجبل لرئيس وزراء فرنسا ليون بلوم، يطالبه فيها بوصفه "نائباً منتخباً من الشعب العلوي"، بعدم الموافقة على إلحاق اللاذقية بالدولة السورية، والإبقاء على دولة العلويين؛ كي لا يصبح العلويون تحت رحمة المسلمين. "إن الشعب العلوي يرفض الإلحاق بسوريا المسلمة؛ لأن الإسلام يُعتبر الدين الرسمي للدولة في سورية، والعلوي هناك يُعتبر كافراً، وكل ما يملكه من دم ومال وشرف، تحت رحمة المسلمين".

والظاهر أن هذه الحجّة، كانت ترنّ في ذاكرة المقبور في القرداحة؛ لأنه حرص منذ أن نصّب أحمد الخطيب رئيساً لسوريا تحت إشرافه، حرص أن يحصل على فتوى، تثبت أن العلويين مسلمون، فسارع لنجدته بتلك الفتوى حينها الإمام موسى الصدر الذي أعدمه القذافي لاحقاً دون أن ينجده الأسد، أو يتشفّع له عند زميله سفاح ليبيا، والأدهى في هذه القضية المعقدة، أن إيران حليفة النظام منذ أيام الخميني، لا تعتبر علويي سوريا من الشيعة الاثني عشرية، ولا تعترف بإسلامهم.

وقد حصل تاريخياً عكس ما تخوّف منه بدوي الجبل في رسالته لبلوم، فالعلويون هم الذين صاروا يتحكّمون بالمسلمين السُّنّة على أيام "الرقيب بوحيدر، وزوجته شكيبة"، وبدل أن يتحكّموا بسنّة اللاذقية وحدهم، صاروا يتحكّمون بالمحافظات كلها بالصيغة ذاتها، وللأسباب ذاتها التي شكا منها عابدين بيك حمادة من سنّة أهل زمانه، الذين صاروا أدوات بيد الدولة العلوية بالساحل، فعبد القادر شريتح، ومجد الدين الزهري، وهم من رؤوس السُّنّة في اللاذقية أيام الدولة العلوية، لم يكونوا أفضل من عائلات طلاس وخدّام والزعبي والشهابي، وغيرها من العائلات التي كرّست بانتهازيتها، وسكوتها عن مظلوميات أهلها حكم العصابة الأسدية في سوريا.

الجزيرة

عدد ٣٢٢

الرأي العام
٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤
١١ آب سنة ١٩٣٥

رئيس التحرير: الدكتور منير النجلاني

صاحب الجريدة: محمد رفيق الكربي

جميع المخابرات باسم: منشيء الجريدة بمدير سياستها المسؤول: محمد يسير طيفور

الادارة: شارع رامي – دمشق
صندوق البريد ٣٤٨ رقم التلفون ١٦ – ٢٠

المسلمون في حكومة اللاذقية
وهل يجوز ان تظل حقوقهم مهضومة ؟!
بقلم الاستاذ عابدين بك حمادة

المظاهرات الايطالية اعتجاجاً على انكلترا واليابان

اشرنا في عدد سابق الى المظاهرات العديدة التي قامت في ايطاليا ضد انكلترا واليابان وجهية الامم والصورة التي الى اعلى تمثل فريقا من الفاشيستين الشبان يصاحبون لوحات كتب عليها بعض كلمات احتجاج على موقف الحكومة الانكليزية وحكومة توكيو، التي عاولون بكل قوام تذكيرها بخوادث (منشو كو) الفظيعة.

الامريكيون .. يتقصون لشرف المانيا من اليهود !
اكتشاف مؤامرة هيتلرية لاغتيال حاكم نيويورك لاغارياً !
الجيستابو... البوليس السري الذي يرجف كل المانى لمجرد ذكر اسمه!

المفاوضات ليست سوى « تقطيع » .. وقت !!
الحرب بين ايتاليا والحبشة .. «ضرورة»
انكلترا تطلب من رعاياها مغادرة بلاد الحبشة

مشاهدات صحفي
في بلاد ملك الملوك

الكاثوليك بعد اليهود والشيوعيين

شكوى مُرّة دوّنها أحد أبناء المدينة عام 1935 زمن "دولة العلويين":

المسلمون في حكومة اللاذقية
وهل يجوز أن تظل حقوقهم مهضومة؟

بقلم: عابدين بك حمادة

" إن حال المسلمين في [دولة] العلويين تتلخص بكلمتين: المسلمون يقومون بأوفر قسط من الواجبات، ولا يتمتعون إلا بجزء يسير، ويسير جداً من الحقوق"

قبل أن نعرض لهذه السياسة المتبعة في حكومة اللاذقية نحو الطائفة الإسلامية، نقول سلفا لمن سيزعم أننا نثير قضية طائفية أننا لا نأبه لهذا القول، لأن حال المسلمين في حكومة اللاذقية أصبح من الجريمة والخيانة معاً السكوت عنها، ومن السخف ومناصرة الباطل أن نمسك في الدفاع عن المسلمين بداعي أنها قضية طائفية، كما أننا على ثقة أن من يقول لنا هذا الكلام هو أحد اثنين: إما أنه يجهل ما وصلت إليه حال المسلمين في هذه الديار فنعذره، أو أنه عالم بها فهو إذن ضد سياسة المساواة والإخاء الطائفي، وهو أول من يعمل لإبادة طائفة معينة.

أما وجوب الدعوة إلى نبذ التعصب الديني، والتمسك بأهداب القومية، فهذا كلام لا يقال إلى أمثال الذين أوجدت في نفوسهم الدراسة التاريخية عقيدة ثانية، هي أن العامل الأكبر في ضعف الدولة العثمانية والقضاء عليها، وبالتالي استعباد هذا الشرق هو التعصب الديني ليس إلا... ولكن هل يجوز أن تتعرض طائفة ما إلى الهلاك ولا تجد من يناصرها بحجة أن المسألة مسألة طائفية؟

بل نذهب أبعد من ذلك ونقول: أليست الدعوة إلى إنصاف طائفة مهضومة، ووجوب معاملتها كبقية الطوائف هي دعوة بعينها إلى الإخاء والمساواة بين الطوائف، كي لا تكون هناك طائفة راضية وطائفة ساخطة؟!

نعود إلى أساس موضوعنا فنقول إن حال المسلمين في [دولة] العلويين تتلخص بكلمتين: المسلمون يقومون بأوفر قسط من الواجبات، ولا يتمتعون إلا بجزء يسير، ويسير جداً من الحقوق؛ فالمسلمون رغم أنهم أقلية عددية يتحلمون أوفر نصيب من الضرائب، ويغذّون نصف الخزينة على الأقل، ومع هذا فإنهم لا يتمتعون إلا بقليل من الوظائف، لا تتناسب وما يدفعونه من الضرائب حتى ولا مع عددهم. والحكومة لا تكتفي بذلك بل تعمل على إقصائهم من الوظائف التي يشغلونها. فالمسلم الذي تشغر وظيفته بحكم التقاعد أو بالإقالة أو الاستقالة يشغلها مسيحي عوضاً عنه.

لا نقول ذلك لاهتمامنا بالوظائف والحمد لله، نحتقر الوظيفة مهما سمت وكبُرت، ونشفق على صاحبها مهما تكن الوطنية التي يتمتع بها، ما دام الوضع السياسي على الشكل الذي نراه، لكننا نورد ذلك للاستشهاد على صحة قولنا من هضم حقوق المسلمين، ولو أن المسلمين يعانون الضرر المادي فحسب، لكان الأمر محتملاً، ولكنهم يعانون أيضاً ذلاً معنوياً أمر على النفس من الفقر المادي... فالمسلم في حكومة اللاذقية يشعر أنه ذليل لا نصر له ولا عون، فلا يدخل دائرة رسمية إلا وقلبه يهلع بها خوفاً، خشية الطرد والإهانة، فيصبر على الأذى والمضض صبر من لا رجاء له، واللوعة تأكله، والأسى يحرقه.

والموظف المسلم ليس أميناً من الغد مهما علت وظيفته، فهو يعيش وسيف العزل أو الإحالة إلى المجلس التأديبي مسلّط فوق رأسه.

ولو كان المسلمون يحدثون اضطراباً أو شغَباً لفهمنا سبب إرهاق الحكومة لهم، ولقلنا هذه شنشنة عرفناها، ولكنهم خالدون إلى السكينة التامة، فما هو عذر الحكومة إذن؟

أما أن المسلمين متجهون بعواطفهم وقلوبهم نحو الوحدة والاستقلال فهذا صحيح، ولكن ماذا يضير الإفرنسيين ذلك؟ وهل التضييق على المسلمين يبدل منهم هذا الشعور؟

والواقع أن السياسة المتبعة نحو مسلمي حكومة اللاذقية تتنافى نصاً وروحاً مع صك الانتداب، لأن هذا الصك ينص في إحدى مواده بصورة صريحة، على وجوب معاملة الطوائف جميعها معاملة واحدة، فهل أصبحنا غير جديرين بشيء، حتى بصك الانتداب؟!

إن الطائفية نمقُتُها ولكنها أوجدت مع الأسف، فيحق لنا أن نطالب بأن تكون عادلة. ولكن علم الله أن أشخاصاً هناك قالوا عن أنفسهم، أو قيل عنهم، إنهم زعماء الطائفة الإسلامية في حكومة اللاذقية، يحملون مسؤولية حالة المسلمين بقدر ما تحملها الحكومة.

جريدة (الجزيرة) الدمشقية العدد (322) 1935/8/11

اللاذقيّة مدينتي

حنّا مينه

هذه العبارة : البحر الى دمشق ، او تنتقل دمشق الى البحر ، لكنني أذكر، منذ وعيت الوجود ، ان البحر اعطاني ماءه الازرق دما في شراييني .

حبي للبحر ، لا يحتاج الى شهادة ،كتبي هي شهادتي ، غير ان البحر ،محبوبا ، لا يبقى في المطلق ، انه في ذاتي ، ظرف مكان وزمان ، المكان هو اللاذقية والزمان تلك السنوات الممتدة بين هجرة عائلتي من لواء اسكندرونة عام ١٩٣٩ ، وبين هجرتي من اللاذقية الى دمشق عام ١٩٤٨ .

ان تكوين الانسان تدخل في نسيجه عناصر كثيرة ، لكنها ، على كثرتها ،محددة ، اما استمرارية هذا التكوين فانها تستغرق العمر كله . وهي ، اذن ، بغير حدود ، غير ان لها محطات حياتية لا تقل في أهميتها ، عن المنعطفات التاريخية بالنسبة لكوننا الاسطورة .

قياسا ، يمكنني القول ، ان اللاذقية كانت لي المحطة الحياتية الاهم الاغنى ، الانفذ ، بتأثيرها الذي كان حاسما ،بين ما قبل ، وما بعد باعتباره تكوينا جسديا ونفسيا ، تخلقت به سلوكياتي وتشكلت خلاله معارفي ، المتحصلة من الكتب والناس ، ومن هذه المعارف أخذت مفهومي الفكري، عن التاريخ والمجتمع ، وما فيهما من جدلية الفلسفة .

هذا هو الجانب العقلي ، المنطقي ، البارد ، المحكوم ،

- ٢٥ - الثقافة - تشرين ثاني ١٩٨٩ ،

حنا مينة يكتب:

اللاذقية مدينتي

حب اللاذقية كان حبي الأبلغ، كتبته على جبيني وصدري وأصابعي. كتبته أيضاً على أحجار القلعة وخضرة المنشية ورمل الشاطئ وبياض النورس، وفي كل حي وشارع ودرب وبيت ومقهى

لا أذكر في أي كتاب وردت هذه العبارة: "أمنيتي أن ينتقل البحر إلى دمشق، أو تنتقل دمشق إلى البحر"، لكنني أذكر منذ وعيت الوجود، أن البحر أعطاني ماءه الأزرق دماً في شراييني.

حبي للبحر لا يحتاج شهادة، كتبي هي شهادتي، غير أن البحر محبوباً لا يبقى في المطلق، إنه ذاتي، ظرف مكان وزمان. المكان هو اللاذقية، والزمان تلك السنوات الممتدة بين هجرة عائلتي من لواء اسكندرونة عام 1939 وبين هجرتي من اللاذقية إلى دمشق عام 1948

إن تكوين الإنسان تدخل في نسجيه عناصر كثيرة، لكنها على كثرتها متعددة، أما استمرارية هذا التكوين فإنها تستغرق العمر كله، وهي – إذن- بغير حدود، غير إن لها محطات حياتية لا تقل في أهميتها عن المنعطفات التاريخية بالنسبة لكوننا الأسطورة.

قياساً يمكن القول إن اللاذقية كانت بالنسبة لي المحطة الحياتية الأهم، الأغنى، الأنفذ بتأثيرها الذي كان حاسماً بين ما قبل وما بعد. تخلقت به سلوكياتي، وتشكلت خلاله معارفي المتحصلة (بفتح الحاء والصاد) من الكتب والناس، ومن هذه المعارف أخذت مفهومي الفكري من التاريخ والمجتمع وما فيهما من جدلية الفلسفة.

هذا هو الجانب العقلي المنطقي، البارد المحكوم بالمقدمات والنتائج، أما الجانب الروحي الذاتي المتلهب، المتمرد على كل القوانين، وكل مساطر القياسات الهندسية، فإنه حبي. منذ الآن أعرف المساحة الصغيرة بين سروتين في مقبرة الفاروس التي ستضم رفاتي (1)، حيث أظل مسكوناً بعشق جارة البحر هذه حياة وميتاً.

أعترف، أجمل ما في الحب هو الإمساك عن الكلام عليه، وترك التعبير عنه لومضة العين، وحرارة اليد، وتمسيدة الشعر، والذهاب مع القبلة في هنيهة من تخم البداية إلى حافة النهاية. القبلة التي تكتب ذاتها على الشفتين والوجنتين والعنق وحبة القلب، ثم يكون الصمت، حين الصمت أبلغ.

كانت اللاذقية بالنسبة لي المحطة الحياتية الأهم، الأغنى والأنفَذ بتأثيرها الذي كان حاسماً بين ما قبل وما بعد.

حب اللاذقية كان حبي الأبلغ، كتبته على جبيني وصدري وأصابعي. كتبته أيضاً على أحجار القلعة وخضرة المنشية ورمل الشاطئ وبياض النورس، وفي كل حي وشارع ودرب وبيت ومقهى، كما كتبته على ملاحات النساء وشمائل الرجال وحافظ الأطفال، وكل هذا الحشد من المخلوقات الأدبية التي فردوسها وجحيمها أيضاً، صحائفي وذكريات شبابي.

إنما المدن كالنساء، نحن لا نستطيع مهما وهبنا نساء العالم حبنا الذي في سعة الفضاء، إلا أن نهب حبنا الحقيقي، الحب العظيم الذي في العمر مرة واحدة يكون لامرأة بعينها، امرأة الدهور حسب تعبير آراغون، امرأة كل الفصول، كل الأعوام والأيام... وكذلك حين نهب المدن حبنا، لا بد أن نهب مدينة بذاتها حبنا الكبير، لأنها مدينة المدن في ذاتنا عاشت، وفي نسغنا كانت نسغاً باقياً.

حين نهب المدن حبنا، لا بد أن نهب مدينة بذاتها حبنا الكبير، لأنها مدينة المدن

أما المرأة التي وهبتها قلبي فهي مجدلية الطيب، وسوسنة نشيد الأناشيد، ولا تهمكم معرفتها في شيء... فلندعها سريرة بين القلب وشغافه، وغالية بين الياسمينة وعطرها. وأما المدينة التي اصطفيتها نعمى ونجوى وذاكرة، ومنحتها إيثاراً وتكرمة حبي كله ووجودي كله، فهي مدينتي ولاذقيتي.

وغدا عندما يخرج الجسد من بوابة البيت في مشواره الخير، بين مسقط الرأس ومثواه، وعندما ترف الروح حمامة بيضاء تعانف غمامة الموت، سيكون في وسعي، قولة ناظم حكمت: أودع الأبدية يا لاذقيتي الحبيبة، لقد فعلت كل شيء لإسعادك.

أودع الأبدية يا لاذقيتي الحبيبة، لقد فعلت كل شيء لإسعادك

هامش:

(1) توفي حنامينة في 17 آب/ أغسطس عام 2018 ودفن في مقبرة (الفاروس) القديمة في اللاذقية، كما قال في هذه المقالة... وكما أوصى.

مجلة (الثقافة) تشرين الثاني / نوفمبر 1989

ملف دعائي نشر عام 1924:

جولة في الدولة العلوية

دوّنه الأب: لويس شيخو

السنة الثانية والعشرون . العدد ٧ تموز ١٩٢٤

المشرق

جولة في الدولة العلوية

للاب لويس شيخو اليسوعي

الدولة العلويّة هي ثالثة الدول الوطنيّة السوريّة الداخلة تحت الانتداب الفرنسوي لكنّ موقعها في اطراف سواحل بحر الشام قريباً من جبال قليلة المنافذ صعبة المسالك مع نفور سكّانها من الاختلاط ببقيّة العناصر السوريّة جعلها كالبلدة الحسناء المتستّرة المحصّنة في خدرها لا يعلم الجمهور الّا الزهيد من امورها

وها قد اطّلعنا على دليل صغير نشرتهُ الحكومة الفرنسويّة مؤخّراً مطبوعاً في مطبعتها الكاثوليكيّة باللغة الفرنسويّة (١ وضمّت اليهِ خارطة لافادة السيّاح (٢ اشارت فيها الى اهمّ مدن الدولة وقراها وآثارها القديمة مع تعريف مركزها واقضية سنجقيّها وانهارها وجبالها . فكان ذلك داعياً حدا بنا الى كتابة فصل خاصّ بهذه الدولة نستفيد فيهِ من الدليل المذكور ونشفعهُ بمعلومات أخرى نستقيها من موارد العلماء والاثريين الذين كتبوا عن تلك الانحاء. ولم تزل كتاباتهم مجهولة لدى معظم اهل الوطن

١ معلومات عمومية

﴿اسم الدولة﴾ هذه الدولة تُعرف اليوم بالدولة العلويّة نسبةً الى علي بن ابي

١) هذا اسمهُ : Petit Guide Touristique de l'Etat des Alaouides (SYRIE)

٢) هذا العنوان Carte Routière et Touristique de l'Etat des Alaouides

الدولة العلوية هي ثالثة الدول الوطنية السورية الداخلة تحت الانتداب الفرنسوي لكن موقعها في أطراف سواحل بحر الشام قريباً من جبال قليلة المنافذ صعبة المسالك، مع نفور سكانها من الاختلاط ببقية العناصر السورية، جعلها كالغادة الحسناء المتسترة المحصنة في خدرها، لا يعلم الجمهور إلا الزهيد من أمورها.

وها قد اطّلعنا على دليل صغير نشرته الحكومة الفرنسوية مؤخراً، مطبوعاً في مطبعتنا الكاثوليكية باللغة الفرنسوية وضمت إليه خارطة لإفادة السياح، أشارت فيها إلى أهم مدن الدولة وقراها وآثارها القديمة مع تعريف مركزها وأقضية سنجقيها وأنهارها وجبالها، فكان ذلك داعيا حدا بنا إلى كتابة فصل خاص بهذه الدولة نستفيد فيه من الدليل الذكور ونشفعه بمعلومات أخرى، نستقيها من موارد العلماء والأثريين الذين كتبوا عن تلك الأنحاء، ولم تزل كتاباتهم مجهولة لدى معظم أهل الوطن.

1- معلومات عمومية

اسم الدولة: هذه الدولة تعرف اليوم بالدولة العلوية نسبة إلى علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين وزوج فاطمة كريمة نبي المسلمين. ينتمي إليه العلويون ويعظمونه بمثابة مشترع الإسلام. وكان الاسم الغالب عليهم قبل هذه السنين اسم النصيرية الذي صحّفه البعض باسم الأنصارية، واشتقاق هذا الاسم على ما رواه ابو الفداء في (تقويم البلدان)، عن ابن سعيد من (نصير مولى علي بن أبي طالب)، والمرجح أنهم ينسبون إلى محمد بن نصير أحد أتباع حسن العسكري والإمام العلوي المتوفى سنة 260هـ، 873 م، الذي وصفه الكتبة المسلمون بأحد غلاة الشيعة. ومن غريب الاتفاق أن بلينيوس الكاتب اللاتيني في القرن الأول للمسيح يدعو في تاريخه الطبيعي (5:81) أهل أفامية (قلعة المضيق)، بالنصريين (Nazerini).

حدود الدولة العلوية: تمتد هذه الدولة جنوبا إلى النهر الكبير المدعو عند اليونان بألفثيروس (Eleutherus) أي الحر، وشرقا إلى حدود دولة دمشق ثم نهر العاصي، وتتاخم شمالا دولة حلب وغربا بحر الشام.

مساحتها. جبالها. أنهارها: تبلغ الدولة العلوية طولاً من الجنوب إلى الشمال نحو 200 كيلومتر، وعرضاً نحو 200 كيلومترا فيكون مجموع مسافتها نحو 6000 كيلومتر.

أما جبالها فسلسلة متواصلة كان القدماء يدعونها باسم برجيليوس (Bargylus) تبتدئ جنوبا عند النهر الكبير وتمتد إلى الشمال الغربي، وهي تدعى هناك بجبل الأكراد ثم تتصل بالجبل الأقرع ومجال أنطاكية.

وفي دولة العلويين أنهار عديدة تصب في بحر الشام وهي مباشرة من الجنوب نهر الأبرش ونمر عمريت ونهر عمتي ونهر حسين ونهر مرقية ونهر بوس ونهر خريصون ونهر جوبي ونهر السن أو الأبتر ونهر برغل ونهر المسكين ونهر الروس ونهر المضيق ونهر الصنوبر ونهر الكبير ونهر القنديل.

وكفى بعددها دليلا على خصب تلك البلاد وإن يكن بعضها سيولا تكاد تنضب في فصل الصيف. وأعظمها النهر الكبير أو الأبيض، وهو غير النهر الكبير (الوثيروس)، الفاصل بين لبنان الكبير ودولة العلويين، فإن نبعه في ولاية حلب فيقطع مسافة 56 كيلومترا ويصب جنوبي شرقي اللاذقية.

تقاسيمها الإدارية: تقسم اليوم الدولة العلوية إلى سنجقين، سنجق اللاذقية ومركزه اللاذقية، تحت إدارتها ثلاثة أقضية وهي: قضاء اللاذقية وقضاء صهيون وقضاء جبلة.

وسنجق طرطوس وهو ينقسم إلى خمسة أقضية:

قضاء طرطوس، وقضاء مرقب، وقضاء العمرانية، وقضاء صافيتا، وقضاء الحصن. وتلحق بالسنجقين جزيرة أرواد المستقلة.

سكان الدولة العلوية: هذه نتيجة إحصائهم الأخير الذي تم سنة 1922:

العلويون	١٥٣,٣٩٨	الروم الكاثوليك	٧٢٥
المسلمون	٥٩,٦٨٩	البروتسانت	٧٠١
الروم الأرثوذكس	٣٣,٩٠٣	الأرمن الكاثوليك	٦٣٧
الإسماعيليون	٥,٥٨٧	الأرمن البروتسانت	٤١٣
الموارنة	٤,٤٣٠	اللاتين	١٥
الأرمن الغريغوريّون	١,٦٦٥	المجموع	٢٦١,١٦٢

دولة العلويين قليلة المنافذ، صعبة المسالك، مع نفور سكانها من الاختلاط ببقية العناصر السورية

كان الاسم الغالب على العلويين قبل هذه السنين "النصيرية" الذي صحّفه البعض باسم الأنصارية، والمرجح أنهم ينسبون إلى محمد بن نصير أحد أتباع حسن العسكري والإمام العلوي المتوفى سنة 873 م، الذي وصفه الكَتَبة المسلمون بأحد غلاة الشيعة.

اللاذقية هي عاصمة الدولة العلوية. بلغ عدد أهلها في الإحصاء الأخير 21,066 نفساً وهي إحدى المدن العريقة في القدم ترقى إلى عهد الفينيقيين

2- مدن دولة العلويين الساحلية

مدن العلويين على ساحل بحر الشام أربع: اللاذقية ثم جبلة ثم بانياس ثم طرطوس.

اللاذقية: هي عاصمة الدولة العلوية. بلغ عدد أهلها في الإحصاء الأخير 21,066 نفساً وهي إحدى المدن العريقة في القدم ترقى إلى عهد الفينيقيين كانت تدعى سابقا باسم راميثا أي العالية. استولى عليها السلوقيون فزينها سلوقس نيقاطور (280 - 312) بالأبنية البديعة وحفر مرفأها وخصمها بإنعامات جمّة ودعاها لاوذيقية باسم والدته (لاوذيقة) ومنها اسمها الحالي اللاذقية أو اللاذقية البحرية تمييزا لها عن لاذقية أخرى في لبنان، منحوها استقلالا نوعيا فضرب ملوكها النقود على اسمهم.

وفي العهد الروماني تناوبت عليها أيام سرا، وضراً وخصب وخمول بسبب ما حصل بين الرومان من المنازعات في أنحاء الشام لاسيما في عهد كاسيوس وبسيانوس نيجر اللذين نهباها وخرّباها وقد أثلبها على خلاف ذلك أنطونيوس ويوليوس قيصر وسبيتيوس ساويرس لانتصار أهلها لحزبهم ومنحها ساوپروس حقوق المدن الرومانية ودعاها سبنتية الساوريّة.

وترى إلى يومنا هذا بقايا قوس الانتصار الذي أقيم ترحيبا به بعد انتصاره على نيجر وقياسه في جوانبه 15 مترله واجهة مهيبة بطنوف بارزة وأعمدة قورنثية ونقوش محفورة في قلب الصخر. ومن ذاك العهد الروماني الهيكل الشد لإكرام الإله ديونيسيوس أو باخوس، له الصواري والأعمدة ذات الأكلّة الجميلة والنقوش البديعة. يبعد عن قوس النصر نحو 500 متر. وفي اللاذقية من عهد ملوك الروم كنيسة قديمة حولها العرب إلى مسجد جامع، ولا تزال فيه تصاوير نصرانية على جدرانه و آثار منقوشة على جوانبه.

فتح العرب اللاذقية السنة 18 هـ -637 م فبقيت في حكمهم إلى أواخر القرن العاشر فغلبهم عليها الروم ثم عادوا فاستولوا عليها، إلى أن فتحها الصليبيون وألحقوها بإمارة أنطاكية فكانت فرضتها لحسن مرفأها. والمدينة على منعطف ربوة داخلة في البحر كان يمنعها سور ذو شُرَف وتحدق بها الكروم التي كانوا يعصرون من عنبها خمراً طيباً، أطنبَ القدماءُ في ذكرها.

وكان في أعلى المدينة حصنان حريزان ترى في يومنا آثارها وكانت في خارج المدينة عند مصب النهر الكبير وهم يدعونه بالنهر الابيض كنيسة على اسم القديس أندراوس الرسول، ثم نُكبت اللاذقية بويلات الزلازل (1157 و 1170) وكوارث الحروب بفتح السلطانين صلاح الدين الايوبي (1188) وقلاوون (1286) فخمل ذكرها وجعلها المماليك المصريون تحت حكم طرابلس. وبقيت كذلك في زمن بني عثمان إلى أن فصلها عنها مدحت باشا ومنحها رتبة المتصرفية، فنهضت قليلا من كبوتها وراجت سوق زراعتها ولاسيما تبغها الفاخر. وكانت اللاذقية مع ذلك أشبه بقرية تغلب عليها الأخربة، وتشوهها الأقذار، وها هي قد أصبحت اليوم بفضل الانتداب الفرنسوي متناسقة الأحياء منظمة الأبنية نظيفة الأسواق، مُنارة ليلاً بالكهرباء، يشرب سائر أهلها المياه الصافية وينزهون الأرواح في حديقتين بديعتين، والسيارات توصلها بأنحاء الدولة وبالتخوم المجاورة بما أنشئ لها من الطرق ريثما تبلغها السكك الحديدية.

جبلة: جنوبي شرقي اللاذقية على مسافة نحو 30 كيلومترا منها وهي بلدة صغيرة دعاها قدماء الفرنج Zibel يبلغ عدد سكانها حاضرا كما ورد في الإحصاء الأخير 4,567 نفساً، وهي مدينة حسنة الموقع جميلة المنظر تُحدق بها البساتين. وقد نظّف الانتداب

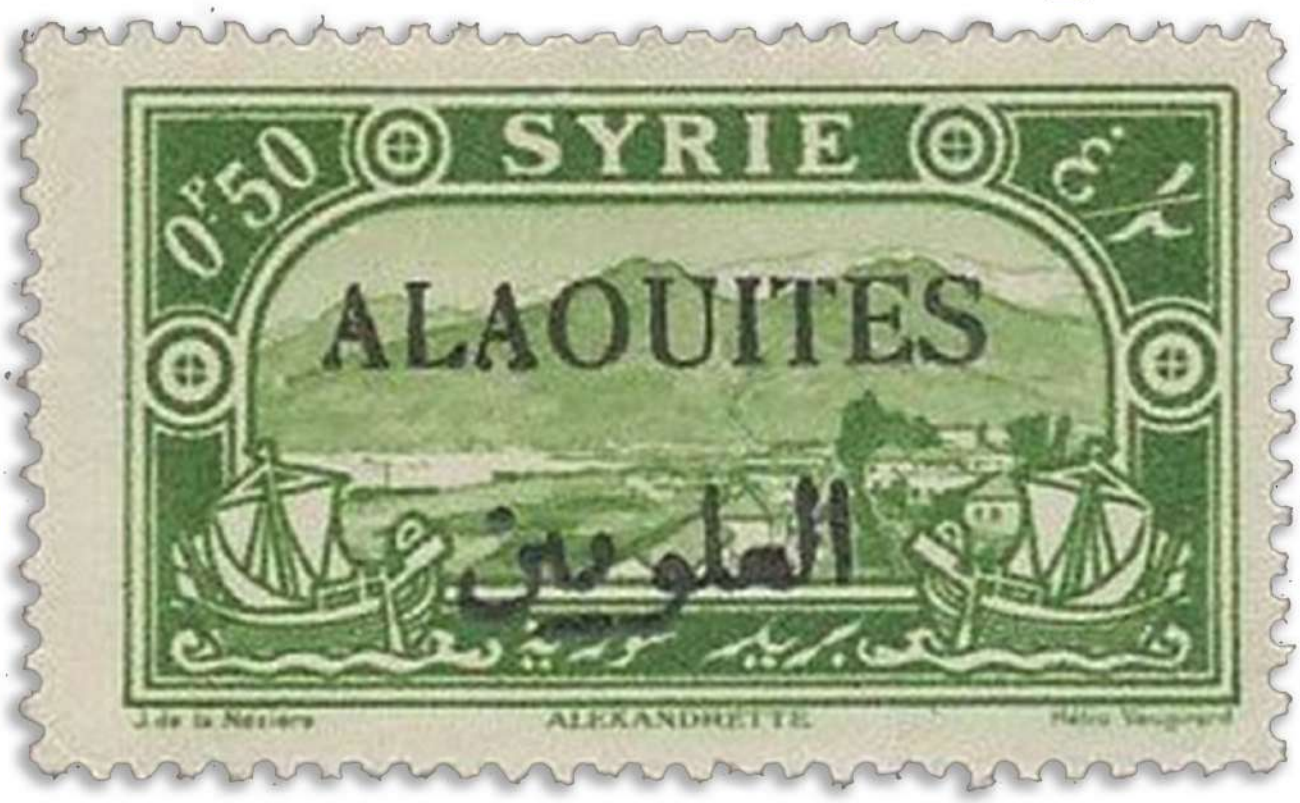

أسواقها القذرة التي كانت معششة فيها الميكروبات وجراثيم الهواء الأصفر. ويدل اسمها على ارتقائها إلى زمن الفينيقيين وإليهم ينسب مرفأها وتقريبا من البحر شمالي المدينة مدافن فينقية، ومن آثارها مسجد السلطان إبراهيم ولعل الصواب أن فيه قبر إبراهيم بن الأدهم أحد زهاد المسلمين المتوفي سنة 161 م (778م) على ما روى أبو الفداء في (تقويم البلدان) فدعاه العامة بالسلطان.

وقد تناوب في ملك جبلة بعد الفينيقيين ملوك السلوقيين ثم الرومان ومن آثارهم هيكل على اسم الشمس، ثم حلبة رياضاتهم وألعابهم الباقية إلى يومنا. ثم صارت جبلة إلى ملوك الروم فرمم الملاك يوستنيان ابنيتها. و كانت حصنا للروم فتحها العرب. قال ياقوت في معجم البلدان (25:5): « وبنى معاوية بجبلة حصنا خارجا من الحصن الرومي القديم وكان سكان الحصن القديم قوما من الرهبان يتعبدون فيه على دينهم فلم تزل جبله بأيدي المسلمين على أحسن حال حتى قوي الروم وافتتحوا ثغور المسلمين فكان فيما أخذوا جبلة في سنة 357 (967م) بعد وفاة سيف الدولة بسنة ولم تزل بأيديهم إلى سنة 473 (1081م)... فوثب عليها ابن ضليعة قاضي جبلة واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فتقوى به على من جاء من الروم فأخرجهم منها... ثم ملكها الفرنج سنة 502 (1108 م)... إلى أن استردها الملك الناصر صلاح الدين في 584 (1188م) » وفي السنة 1624 تولى تدبيرها الامير فخر الدين المعني.. ثم بقيت في أيدي الأتراك إلى أواخر الحرب الكونية سقيمة خاملة، وخصوصا بعد أن فتك بأهلها الهواء الأصفر سنة 1875 فتكا ذريعا، فأنقذتها فرنسة من سقمها ولا تزال ساعية في تحسين أمورها. وللسلطان عبد الحميد فضل في ترميم مسجدها وإصلاح حمامها التي تجري إليها مياه نبع الفوار الذي يقطع المدينة ويمر في المسجد ثم يصب في البحر، والسهول المجاورة لجبلة وافرة الخيرات فيها البساتين الكثيرة الآثار وفيها يزرع تبغها الشهير المنسوب إليها المعروف بأبي ريحة. ولها أيضا المراعي المنتجعة تسرح فيها المواشي. وكانت ضرائب الأتراك عليهما تبلغ في السنة 160,000 قرش بنيّف.

نظف الانتداب أسواق جبلة القذرة التي كانت معششة فيها الميكروبات وجراثيم الهواء الأصفر

كانت أرواد مع صغرها كثيرة السكان شاهقة البنيان. تدل على عمرانها آثار عديدة من أعمدة وأخربة وكتابات يونانية ونقود

بانياس: يدعوها العرب بانياس وفي كتب الصليبين * Balanaia أو Valenie يشتق اسمها من اللاتينية (Balancea) أي الحمامات. كان القدماء يستحمون فيها. ولأنها بنيت في أيام اليونان. وكان لها في أيام النصرانية كنيسة جميلة وحضر أسقفها المجمع النيقوي (325) وهي في سفح جبل فوقه حصن مرقب على ساحل البحر تبعد نحو 25 كيلومترا عن جبلة، ولها التربة الخصبة والبساتين الطيبة ذات الأشجار الوارفة الظلال، الجَنيّة الأثمار المفردة الأطيار، يسير في وسطها نهر بانياس الذي تنبع مياهه شرقي الطريق على مسافة قريبة من البلدة. عدد سكان بانياس بموجب الإحصاء الأخير 1,286 وللمسلمين فيها مسجد. أما النصارى فأكثرهم يسكن في قرية جنوبي بانياس تدعى مساكين للموارنة منهم فيها كنيسة. ولهم كنيسة أخرى في عين صفراء حيث تكثر مزارع الزيتون.

قرى الدولة العلوية تنيف على الألف وأكثرها للعلويين وللمسلمين، ومنها ما يسكنه النصارى كالموارنة والروم، وبعضها مشترك بين أهل الأديان المختلفة، ومعظم السكان يرزقون بالفلاحة والزراعة ورعية المواشي وتربية القز والنحل وعصر الزيت

طرطوس: والأصح طرطوس ويقال طرسوس واسمها مشتق من "Antaradus" أي الواجهة لأرواد، هي من المدن الساحلية القديمة موقعها بين بانياس على مسافة نحو 40 كيلومترا جنوبها وطرابلس على مسافة 50 كيلومترا شماليها. أقامها أهل أرواد الفينيقيون بإزاء جزيرتهم تسويلا لجارتهم وزراعتهم، عني الامبرطور قنطنسيوس الأول بترميمها فدعاها باسمه قسطنطينة (Constantina) فحصنها بسور وقلعة ولها الحدائق المحيطة بها. وقد اشتهرت في أيام الصليبين بمنسوجاتها الصوفية، وعدد أهلها اليوم يبلغ 3,307 كما ثبت بالإحصاء الرسمي.

أرواد: هي الجزيرة الصغيرة التي تبعد عن البر بمسافة كيلومترين جنوبي غربي طرسوس يسكنها 2,731 نفساً وفقاً للإحصاء الأخير. وقد لعبت أرواد دوراً هنا في التاريخ كصور وصيدا منذ عهد الفينيقيين، وحصلت على استقلال نوعي في عهد السلوقيين فضربت على اسمها النقود، وكان لها جسر بينها وبين البر وكانت مياه البر تجري إليهم بقساطل، ما عدا ما يجمعونه في آبارهم. واشتهر الأروايون خصوصا بالتجارة البحرية وقد خص النبي حزقيال بالذكر الأروادِيين فدعاهم (27: 8) "قذافي صور" وقال في نبوته عن صور (11: 27): بنو أرواد مع جيشك كانوا على أسوار من حولك والأبطال كانوا في بروجك وعلقوا تروسهم على أسوارك هم أكملوا جمالك). وقد حارب الأروايون مع اليونان والرومان. وكان لأرواد سور مزدوج غاية في المتانة يرد عنها غارات الأعداء تُرى إلى اليوم آثاره. وكانت أرواد مع صغرها كثيرة السكان شاهقة البنيان. تدل على عمرانها آثار عديدة من أعمدة وأخربة وكتابات يونانية ونقود. وكان لها دار ندوة ويملك عليها ملوك وطنيون يسوسون أهلها. ومنهم كان جروستراتوس الذي حارب الاسكندر مع الفرس ثم أسرع وترضاه بالهدايا لا رآه ظافرا فنال منه الأمان. ولما مَلك العرب أرواد خرج منها أهلها، وأمر معارية بدك حصونها وإحراق أبنيتها. ومذ ذالك الحين قل سكانها وضعف أمرها كانت تابعة لولاية طرابلس.

هذه مدن الدولة العلوية، وأما مدنها الداخلية فهي كالقرى نذكر البعض منها مما ذكر في التاريخ.

3- قرى دولة العلويين ذات الشأن

قرى الدولة العلوية ومزارعها تنيف على الألف وأكثرها للعلويين وللمسلمين، ومنها ما يسكنه النصارى كالموارنة والروم، وبعضها مشترك بين أهل الأديان المختلفة ومعظم السكان يرزقون بالفلاحة والزراعة ورعية المواشي وتربية القز والنحل وعصر الزيت وليس ما يستحق الذكر بين القرى إلا القليل. فمنها (مصياف) ويقال مصياد وهي قصبة قضاء العمرانية يبلغ عدد أهلها 1,700 نفس مبنية في منعطف جبل، قال أبو الفداء في تقويم البلدان (ص 219) «مدينة مصياف وهي بلدة جليلة وبها أنهار صغار من أعين، ولها بساتين ولها قلعة حصينة، وهي مركز دعوة الإسماعيلية وهي في لحف جبل اللكام الشرقي. وغربي مصياف قرية (قدموس) بينها وبين بانياس وهي مبنية على منعطف جبل في قمته قصر الإسماعيليين القديم يكشف منه الناظر على البحر وعلى جبل لبنان بمنظر فتّان يأخذ بالأبصار. وقدموس يبلغ اليوم أهلها قريبا من 900 نفس لهم مدير.

وأعظم منها شأنا قرية (صافيتا) شرقي طرطوس عدد أهلها بموجب الإحصاء الأخير 2,842 نفسا يبلغ منهم الروم نيفا وألفين ثم الروم الكاثوليك 400 والباقون علويون ومسلمون. وهذه البلدة قد أفرغ الكابيتان بيزلا (Pisella Cne) وسعَهُ في إصلاحها وتزيينها، ففتح فيها الطرق وغرس الأشجار وجهزها بالنور الكهربائي وبالتليفون وبمحطة للسيارات. وفي صافيتا معمل حرير للوجهاء البيروتيين (فرعون وشيحا) يُصطنع فيه كل سنة نحو عشرة آلاف كيلو من الحرير. وفي صافيتا والقرى المجاورة يشتغل الأهلون الطنافس الشهيرة (راجع المشرق6 [1903]:880) وفي صافيتا كنائس قديمة منها كنيسة على الطراز اللاتيني هي اليوم في أيدي الروم. أما الروم الكاثوليك فهم يعنون حاضرا بابتناء كنيسة جميلة كان باشر بها طيب الذكر المطران يوسف الدوماني ويسعى سيادة خلفه في إنجازها.

وقريبا من صافيتا قرية (كفرون) معظم أهلها من الموارنة الأتقياء.. ولراهبات قلبي يسوع ومريم فيها مدارس زاهرة. وبجوارها قرية دريكيش التي فيها مياه معدنية شبيهة بمياه فيثل (Eau de l ' ittel) الشهيرة في فرنسة.

ومن القرى الحرية بالذكر تل كلخ على مر السكة الحديدية بين حمص وطرابلس. في شرقيها في البقيع وتمت المعركة بين الفيصليين ودولة الانتداب سنة 1920؛ ومن مآثر الجنرال بيليوت (cal Bilote) ثم خلفه المسيو كيلا (Cayla) فيها وفي كل جهات دولة العلويين الطرقات التي فتحها حتى تسهلت المعاملات وراجت الاسواق وتحنت أحوال البلاد.

4- الآثار القديمة في دولة العلويين

كانت أرض العلويين ممراً لغزاة الشعوب الذين قصدوا فتح بلاد الشام وسواحلها سواء أتوا من جهات العراق أم زحفوا إليها من آسية الصغرى أو من مصر، فاستولوا عليها تباعا من بابليين ومصريين وماديين ويونان ورومان وعرب. على أن الأيام ذهبت بكثير من آثارهم فبقي منها القليل الزهيد، وها نحن نذكر منها البعض ما وقفنا عليه.

الآثار المصرية: إن ما ثبت لرأي الفاضل المسيو مونتيه عن قدم المواصلات بين دولة الفراعنة ومدينة جبيل، يصدّق أيضا على أنحاء الدولة العلوية، ولاسيما عن سواحلها؛ فإن رينان في بعثة فينيقية ذكر آثارا حسنة من العادات المصرية وجدها في جزيرة أرواد وفي طرطوس وعمريت، منها كتابات هيروغليفية في أرواد ذكر فيها الفرعون بساتيك الأول. ومنه تماثيل ودمى ورموز مصرية على آنية من المرمر الشفاف تمثل ابا الهول والحية السلطانية (urcus) التي كانت تجعل فوق تاج الفراعنة. وفي طرسوس وجدت آثار دينية من معبودات المصريين. وفي عمريت وقفوا على تمائم وحلي وأثاث عليها علائم مصرية بينها كرة ذات تاج حولها حبات يعلوها قرص مجنح. وكذلك ورد بين الآثار المصرية ذكر قلعة شبتونة في عهد رمسيس الثاني. وقد تحقق أرباب العاديات المصرية أنها سبقت الحصن المعروف اليوم بحصن الأكراد الذي جدد بناءه الفرنجة الصليبيون.

الآثار الفينيقية: وهي كثيرة في بلاد العلويين. منها مدافن قدية كمدفن اللاذقية ومدفن جبلة بعضها منقور في الصخر على صورة أجران فيها آثار كزجاجات المدامع وخزفيات، وبعضها كالآبار يضجعون فيما الميت. ومن أعظم هذه المدافن مدافن اللاذقية المنحوتة في وسط الصخور على مسافة نحو كيلومتر. ومن آثار الفينيقيين في أرواد وفي بعض الحصون صهاريج محكمة البناء ثم أبنية شتى ذات حجارة ضخمة وأعمدة وسوار. وكذلك آثار دينية من معبودات الفينيقين كتماثيل "عشتروت" وانصبة ومقادس كانوا يعملون فيها عرش «الآلهة السورية، كما في عمريت في بيانها المعروف بالمعبد ذي الآثار الجليلة الباقية إلى يومنا، ومنها أيضا هيكل بتوقيقي (Batoc) الفينيقي الذي يعرف بحصن سلمان لا تزال منه بقايا صالحة يزورها السياح شرقي شمالي صافيتا وشمالي المشتى. وفي شمالي دولة العلويين آثار هيكلين آخرين مريمين وصهيون، وجدت فيهما مصنوعات دالة على المادة الفينيقية.

الآثار اليونانية والرومانية: الآثار الرومانية خصوصاً من أبنية خصوصاً كانوا يشيدونها لزينة البلاد أو لإكرام معبوداتهم كالهياكل والمسارح والقصور الفخمة تشهد على جمالها الآثار التي صبرت على آفات الدهر كما سبق. ومن الآثار اليونانية والرومانية مما عددٌ لا يحصى من الكتابات العاديّة بعضها وثنية، وبعضها نصرانية وبينها كتابات مدة نشرها الأثريون كطومون ورينه دوسو وحضرة الأب لامنس على كثير منها تاريخ السلوقيين. وأمتع هذه الكتابات ما ورد فيها شيء من الآثار النصرانية فتارة يذكر فيها اسم السيد المسيح ابن الله وتارة يلتجئ إلى قدرته بين المحتاجين وحينا يستفاد منها أسماء بعض أعيان الأزمنة الخالية من أساقفة وكهنة ومؤمنين. وحين آخر تشير إلى نذور وتقادم إلى بعض أولياء الله كالقديس جاورجيوس وغيره. ومع هذه الكتابات الرموز النصرانية المعروفة كالصلبان وبعض الطيور الرمزية كالحمامة والطاووس

العميد في بلاد العلويين

زار مؤخرا العميد الموسيو بونسو اللاذقية وبلاد العلويين وترى هنا رسمه عند مدخل دار الموسيو شوفلر حاكم العلويين

« وهذا الرسم ورسم مأدبة المطران وطاغور مستعارة من رصيفتنا الأحرار المصورة التي نشكر لها حسن صنيعها »

من أعظم المدافن الأثرية مدافن اللاذقية المنحوتة في وسط الصخور على مسافة نحو كيلومتر. ومن آثار الفينيقيين في أرواد وفي بعض الحصون صهاريج محكمة البناء ثم أبنية شتى ذات حجارة ضخمة وأعمدة وسوار.

لما دخل الصليبيون بلاد الشام وقعت كل أملاك الدولة العلوية تحت حكمهم وبقيت في أيديهم إلى أواخر القرن 13، إلا بعض السنين كان المسلمون يستولون عليها، وخصوصا في عهد صلاح الدين الأيوبي.

وبعض النقوش كالأنجر وسعف النخل... إلخ

آثار الصيادين: وهي كثيرة وأخصها القلاع المحصنة التي شادوها لصيانة البلاد منه هجمات الأعداء.. نذكر منها أخصها. لما دخل الصليبيون بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر وقعت كل أملاك الدولة العلوية تحت حكمهم وبقيت في أيديهم إلى أواخر القرن الثالث عشر إلا بعض السنين كان المسلمون يستولون عليها، وخصوصا في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وكانت أول آثارهم أنْ حصّنوا المدن الساحلية في وجه أعدائهم ففتحوا الموانئ أو أصلحوها، وبنو لها البروج للدفاع عنها. وكثير من هذه الاستحكامات لم يقو الزمان على دكه إلى عهدنا هذا كما ترى في بانياس وجبلة.

وأعز من هذه الأبنية الحصون الحريزة التي بنوها على حدود بلاد العلويين قريبا من النهر الكبير فجعلوها سلسلة متقاربة بحيث لا يستطيع أحد يلحق بها ضررا، منها (قلعة الحصن) التي كانت في عهدة فرسان القديس يوحنا المعروفين بالاسبيتلار وكان اسمها (Krae des Chevaliers) كانت من أحرز الحصون تحميها البروج وعلى جوانبها الحجارة المنحوتة على هيئة منعطف، لا يستطيع الجنود أن يرقوا إليها إلا بشق النفس وحولها الخنادق العميقة. وكان لها سوران محدقان بها. وقد استولى عليها السلطان - بيبرس سنة 1271 ومنها قلعة مرقب، وكانوا يدعونها Margat وهي على قمة جبل مشرف على بانياس كانت واقعة في ملك أمير أنطاكية ريموند فأقطعها فرسان مار يوحنا السابق ذكرهم سنة 1207 وكانت من أحرز قلاع الصليبيين ذات سورين منيعين، تحرسها بدنة مفروشة بالبلاط وعدة أبراج، وفي أسفلها صخور ضخمة، وكانت هندستها هندسة الحصون الواقعة جنوبي فرنسة ممزوجة بالهندسة البيزنطية، وكان في وسطها معبد واسع مربع مستطيل يأخذ بمجامع القلب مع بساطته ترينه الأعمدة الفخمة. وفي هذه القلعة توفي ملك الروم إسحاق كومنان سنة 1195 وكان ريتشارد ملك انكلترا أسره وسلّمه لفرسان المرقب. وحاول صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين أن يفتحوا هذه القلعة فأعجزتهم إلى أن سلمها الفرسان للسلطان قلاوون سنة 1285 فخرجوا منها بالأمان ومنها (برج صافيتا، شرقي جنوبي أرواد كان الصليبيون يدعونه القصر الأبيض (Chastel Blanc) كان يحمية فرسان الهيكل وموقعة على جبل بين واديين على علو 230 مترا فوق سطح البحر، كان من القلاع التي لا تنال لوفرة استحكاماتها الدارجة حول جبلها.

كان بناتها الهيكليون حذرا في تشييدها حذو البيزنطيين فبنوا لها سورا مخمس الزوايا كثير البروج المربعة عميق الخنادق، فتحها الملك الظاهر بيبرس سنة 1271 فأسر حماتها وكانت أصيبت قبل ذلك ببعض الخراب في الزلزلة التي دهمت سواحل الشام سنة 1202 وفي دولة العلويين أيضاً (قلعة صهيون يدعوها الفرنج Saone في جبل داريوس شمالي شرقي اللاذقية كان أمراء أنطاكية حفروا حولها خندقا يبلغ عنه ثلاثين مترا في عرض 12م وكانت ثلاثة اسوار محدقة بها وباطنها مجهزا بكل عدد الحرب. أخذها صلاح الدين عنوة سنة 1187. وقد صبر قسم كبير من سورها وأبراجها على الزمان إلى يومنا وللصليبيين قلاع اخرى دون السابقة في الدولة العلوية كيحمور وكرابي وكهف وقلعة بني إسرائيل وعليقة مما تدل آثارها على شئتها... ولهم أيضا الأبنية الدينية منها بيعة السيدة في طرسوس كان الصليبيون أقاموهافي مكان بيعة أخرى قديمة ينسبون بناءها إلى أوائل النصرانية وكان المسيحيون يتقاطرون إلى زيارتها؛ فلما فتح صلاح الدين طرسوس أخرَب منها جانبا، لكن قسما كبيرا منها لا يزال سالما فعني المسيو آنلار (M Enlart') سنة 1921 بدرس آثارها وكتب عن خواصها الهندسية، كما أنه خص بنظره بناء دير اللمند فكتب عنه فصولا شائقة ونشر صوره الممتعة وكان في أيام الصليبيين ديرا للرهبان البندكتيين.

ومن هذه الآثار الدينية أيضا دير مار جرجس حميراء للروم الأرثوذكس فإن كنيسته على اسم القديس فوقا، أقامها الصليبيون فيها من أعمال الهندسة والنقوش الجميلة التي لفتت أنظار حكومة الانتداب فاهتموا بأمرها. وقد سبق لنا أن كنيستهم في صافيتا هي أيضا أثر صليبي وكانت على اسم رئيس الملائكة ميخائيل.

العناصر والأديان في الدولة العلوية

قد سبق ذكر الإحصاء الذي تولت تنفيذه الحكومة الفرنسوية في الدولة العلوية، ولا حاجة لوصف النصارى ودينهم، فسواء كانوا هناك من موارنة أم روم كاثوليك أو أرثوذكس فإنهم حريصون على دينهم، عائشون بالوفاق والوئام، شاكرون لفرنسة همّتها في ترقية أمورهم وتحسين زراعتهم ومناعتهم. ويُؤملون أن ما يختبره الكومندان پيشون (c Pichon) لزراعة القطن يفتح لهم بابا جديدا للارتزاق، وأما البروتستانت فليس لهم من النفوذ في الدولة العلوية إلا بما ينفقون من المال الوافر ليقتنصوا به بعض المحتاجين، لاسيما مهاجري الأرمن والبروتستانت هناك، كما في غير أمكنة من شيع منقسمة.

أما المسلمون فمعظمهم في المدن الساحلية وفي بعض القرى لاسيما الجنوبية يقوم بأمرهم شيوخ ملتهم.

أما النصيريون فعنصرهم هو الغالب على الدولة العلوية، ويمتازون عن المسلمين بعدة أمور ولاسيما بتعظيمهم لعلي بن أبي طالب، فيتخذونه كزعيم ملتهم ويكادون يعتبرونه بمنزلة الإله ويقرنونه بمحمد بن عبدالله وبسلمان الفارسي، فيجعلونهم كنوع من الثالوث ويختصرون أسماءهم بلفظة عمس. والرأي الغالب بين العلماء في عهدنا أن منشأهم كان في العراق في القسم الثاني من القرن التاسع للمسيح، بدعوة محمد بن نصير أحد غلاة الشيعة، ثم بتدبير أحد تَبِعَته المسمى الحسين بن حمدان الخصيبي؛ فانتشروا في جبال اللاذقية وابتنوا الحصون الحريزة فجرت بينهم وبين الإسماعيليين ثم مع المسلمين في عهد المماليك حروب دامية: ولما احتل المصريون بلاد الشام أخرب إبراهيم باشا قلاعهم فأخلدوا إلى السكينة إلا عصباً منهم متفرقة، كانوا يتعاطون اللصوصية.

فرقهم

والنصيرية فرق: الشمالية أو الشمسية في شمالي جبال النصيرية يعبدون الشمس، والكلازية أو القمرية يعبدون القمر، والكلبية يعبدون الحيوان، والغيبية عبدة الهواء. يضمرون تحت هذه الرموز عبادة علي بن أبي طالب، ولهم شيوخ يختلفون رتباً، أعظمهم الإمام ثم النقيب ثم النجيب يتولون صلواتهم وأعيادهم ومحافلهم. ولهم كتب سرية لا يُطلعون عليها أحدا من الغرباء، ولا من نسائهم، ويزعم البعض آن أسرارهم لا تخلو من المنكر. وبينهم كما بين الدروز طبقة العقّال وطبقة الجهّال ويقولون مثلهم بتناسخ الأرواح.

وقد دخل في دينهم شيء من المعتقدات النصرانية وأعيادها وأوليائها، كعيد الميلاد وعيد الغطاس والشعانين والعنصرة وعبد القديسين يوحنا المعمدان ويوحنا فم الذهب. ويتناولون في مجتمعاتهم الخبز والخمر ويدعون أولادهم بأسماء نصرانية. فحمل كل ذلك بعض الكتبة إلى القول بأصلهم النصراني، وليس لهم مع هذا معابد الصلاة إلا خلوات صغيرة مقببة ترى في أطراف قراهم، يجتمعون فيها لمناسكهم. وحاضرتهم مصياف فيها أمامهم.

فلاحون نصيريون من طرطوس (1920)

لا حاجة لوصف النصارى ودينهم، فسواء كانوا موارنة أم روم كاثوليك أو أرثوذكس فإنهم حريصون على دينهم، عائشون بالوفاق والوئام، شاكرون لفرنسة همّتها في ترقية أمورهم وتحسين زراعتهم ومناعتهم

المسلمون معظمهم في المدن الساحلية وفي بعض القرى لاسيما الجنوبية، يقوم بأمرهم شيوخ ملتهم.

أدرك النصيريون ما لفرنسة من الفضل على بلادهم، وهم اليوم مسالمون خانعون، لهم من الحقوق ما لدولتي دمشق وحلب

العيشة في أراضي العلويين ساذجة هنيئة، يقتنعون بما رزقهم الله ويجهلون البذخ والتهتك

وفي الدولة العلوية كما رأيت عنصر آخر وهم الإسماعيليون. فرقة باطنية كانوا في الأصل مع النصيرية فرقة واحدة، ثم انتسبوا إلى قسمين يعادي كل منهما الآخر. والإسماعيليون ينتمون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصديق وهو سابع أئمة العلويين. كانوا في جهات فارس فتفاقم أمرهم، فحاربتهم الجيوش الإسلامية فهربوا من وجهها إلى جبال أنطاكية، ومنها إلى جبل السماق، ثم جبال النصيرية، وتمكنوا من فتح بعض قلاعها بمساعي أحد زعمائهم المدعو عبدالله بن ميمون، فغلبوا النصيرية وتحصنوا في قلعة قدموس ثم في مصياف وكهف ورصافة وبارين. عُرف رئيسهم بشيخ الجبل كان يسكر تَبِعَته بأكل الحشيشة فيدفعهم إلى كل المنكرات فأطلقوا عليهم اسم الحشاشين، الذي اشتق منه الفرنج كلمة Assassins أي القتلة لكثرة من اغتالوهم ونكلوا بهم. ثم اجتمع عليهم المسلمون في عهد مماليك مصر فكسروا شوكتهم. ثم قام عليهم النصيريون فأذلوهم. وقد بقي منهم القليل في عهدنا في جبال النصيرية ويتهمهم العموم باقتراف المحرمات في اجتماعاتهم السرية.

أخلاقهم

إن انقطاع أهل الدولة العلوية عن مراكز الدولة الراقية كان مؤثرا في أخلاقهم، وإن استثنيت منهم النصارى الذين كانوا كالأرّقاء في جوارهم، كان الغالب عليهم الإباء والأنفة والجور لا يردعهم رادع، إلا إذا طاردتهم الجيوش المنظمة وأعملت السيف في رقابهم. وتساعدهم على نفورهم جبالهم الشاهقة ومنافذها الضيقة وحصونها المنيعة. على أنهم بعد واقعة البقيع وخضوعهم للدولة المنتدبة، أدركوا ما لفرنسة من الفضل على بلادهم، وهم اليوم مسالمون خانعون، لهم من الحقوق ما لدولتي دمشق وحلب. ويصح ذلك على البكوات والأغوات المسلمين الذين كانوا متصفين بالسلطة والتغلب يغصبون أموال الناس، ويظلمون القرويين ويسخرونهم لإشغالهم قسرا. منهم الدنادشة والزعبية والتركمان. ويسكن أكثرهم في جنوبي الدولة العلوية في تلكلخ ومشتى. لهم المنازل الفخمة والجياد الكريمة لاسيما جنسها المعروف بالصقلاوي، ولهم عناية كبيرة في تربية الخيل.

والنصيريون ذوو نشاط يرتزقون بالفلاحة وفي أنحائهم الأراضي الطيبة تأتي بالمواسم من الحبوب والبقول والفواكه لكثرة المياه الجارية من جبالهم. وتركوا في أملاكهم أشجار الزيتون والكروم. ويبلغ محصول الحرير نحو 20000 كيلو غرام. وينسج السجاد في بعض قراهم كزارا... أما العيشة الروحية فهي قليلة الانتشار بينهم، ولم يكن لهم المدارس لتهذيب أخلاقهم إلا بعض المكاتب الابتدائية وأكثرها للنصارى والمسلمين. والحكومة الفرنسية مهتمة في سد هذا الخلل؛ فأنشأت في أنحاء البلاد بعض المدارس على نفقتها تؤمل من المتخرجين فيها خيرا لبلادهم. ويثني الناس على مصري زاده برهان الدين بك الذي أصدر مجلة (العلوي)، المعتدلة في اللغتين العربية والفرنسية.

وللأهلين في بلاد العلويين عادات تفردوا بها تختلف لكل قوم منهم في أطوار حياتهم من مولد وزواج وجنازة ففي أفراحهم يركبون المواكب وينشدون الأناشيد ويتغنون بالأهازيج ويوقدون النيران ويطلقون السلاح، ويُغالون بالمظاهرات والألعاب وركض الخيل، والجريد وضرب حركات الفروسية والشهامة. وفي مناحاتهم يعظمون العاب ويشيعون الجنائز بما تلهمهم الأحوال. ويحتفل الزعبيون في جنائزهم احتفالا عظيما فينشرون أعلام الطريقة القادرية التي يتبعونها فيمشي أمامها المشائخ القادرية، وهم يضربون طبولا صغيرة ودفوفاً وصنوجاً ويتغنون بالأغاني الشجية ثم يزور الأقارب قبر الميت مدة ثلاثة أيام صباح مساء. وبلاد العلويين طيبة الهواء ولاسيما في أواسطها وشمالها، والحرارة فيها معتدلة وفي الشتاء تنزل على جبالها الثلوج وتكثر فيها الأنواء، وتتناوب عليها الأرياح الغربية في الربيع والصيف والأرياح الباردة الشرقية من تشرين الأول إلى أواخر آذار. والأحوال الصحية حسنة بالإجمال إلا في جهات الجنوب، فتفتك بها الحيات والجدري. وفي آبان الحرب أديت بالمجاعة فذهب عدد عظيم من الأهلين ضحيتها. والعيشة في أراضي العلويين ساذجة هنيئة، يقتنعون بما رزقهم الله ويجهلون البذخ والتهتك، ويسكنون في بيوت بسيطة سطوحها مرصوصة بالحجارة وداخلها قليل المنافذ وجدرانها خالية من الطلاء. وبعضها أشبه بأكواخ منها بمساكن بشر، إلا قصبة صافيتا فإن أهلها النصارى أحرص على النظافة والعيشة المنتظمة وهم بالإجمال أرفع وأرقي من النصيريين، وعلى الأخص الروم أرباب الثروة في تلك الأنحاء. والقوم بالإجمال يشكرون فخامة الجنرالين نمورد وثيغان لعنايتهما الخاصة بالدولة العلوية

مجلة (المشرق) السنة (22) العدد (7) تموز/ يوليو 1924

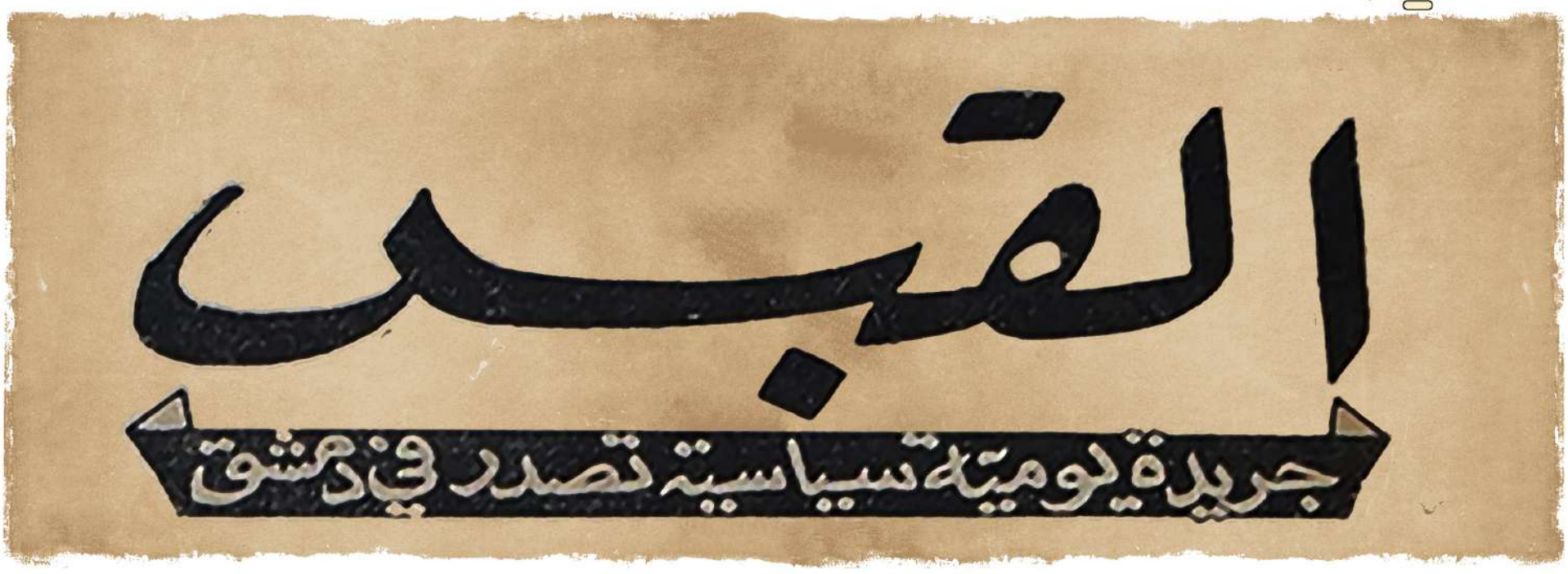
القبس
جريدة يومية سياسية تصدر في دمشق

الاحتفال بنهاية دويلة العلويين ورفع علم الاستقلال في اللاذقية عام 1937:

رايتنا تخفق على البحر

بقلم: نجيب الريس

حينما وقفت الوزارة الدستورية منذ بضعة عشر يوماً تَلقي بيانها في المجلس النيابي وتشرح الخطوط الكبرى لسياستها في الحكم، وتطلب إلى نواب الأمة منحها الثقة على أساس هذا البيان، في ذلك اليوم علقنا على تلك الوقفة بمقالة افتتاحية بعنوان: "السيادة القومية تثبت وجودها". واليوم ونحن في طريقنا إلى اللاذقية في موكب وزير الداخلية السورية والمحافظ السوري، لنشهد رفع العلم السوري على دار الحكومة السورية أيضاً، تقول في كثير من العزة والفرح: اليوم تثبت الوحدة السورية وجودها، في أعز أجزاء الوطن السوري العربي، بعد أن كان هذا الجزء منفصلا نائياً، لا تخفق عليه راية، ولا تظلله سيادة، ولا تطوف بأرجائه حرية!

بل نحن اليوم نمشي في موكب الوحدة السورية، ونسير في ركب الوطن الذي بعث برايته إلى اللاذقية لتخفق على شاطئ البحر المتوسط، في حفلة من أروع حفلات هذا الوطن، بل عرس من أجمل أعراس الحرية بعد أن كانت حفلاتنا وقفاً على الحزن والندب، وبعد أن كانت أعراسنا مآتم، وهتافنا عويلاً، وتهانينا تعازي!

أجل! اليوم شعرنا بأننا نسترد ما أضعنا، واليوم أحسسنا في أعماق نفوسنا بأن عهد الضياع قد انتهى!

وإذ كنا لا نستطيع أن نسترد كل ما فقدناه، فإننا لن نضيع شيئا من أراضي الوطن بعد الآن على الأقل. وإذا بدأت أمة تحافظ على ما في أيديها، وباشرت باسترداد ما خسرته مهما كان ضئيلاً ، فقد ارتفعت من درجة الرجوع إلى الوراء إلى درجة السير إلى الأمام. وليس المهم أن يظفر الإنسان في موقف من المواقف فقط، بل المهم أن يحمي ظفره. ونحن نرجو أن تحمي الأمة هذا الظفر في استرداد جزئين عزيزين: اللاذقية وجبل الدروز.

إن لهذا الموكب الذي خرج من دمشق صباح السبت، ليصل إلى اللاذقية ظهر الأحد معنى وطنياً جميلاً؛ فقد خرج من عاصمة سورية إلى منطقة سورية أيضاً فلم يمر بأرض أجنبية، بل اجتاز طريقه من دمشق إلى اللاذقية في بقاع كلها سورية،

سرايا الحكومة في اللاذقية حيث رفع علم الاستقلال السوري عام 1937

إن لهذا الموكب الذي خرج من دمشق صباح السبت، ليصل إلى اللاذقية ظهر الأحد معنى وطنياً جميلاً؛ فقد خرج من عاصمة سورية إلى منطقة سورية أيضاً فلم يمر بأرض أجنبية

بدأت السيادة القومية فأثبتت وجودها في البرلمان في دمشق أمس، وانتهت بإثباته اليوم فوق جبال العلويين وعلى ساحل البحر

فمن غوطة الشام، ومن جانب قبور الشهداء المنتشرة على السواقي وتحت الأشجار والمطلة علينا من ذرى قلمون وهضاب النبك، ومن مشارف حمص والمصفوفة على ضفاف العاصي في حماة، حتى جبل الزاوية حيث يرقد رفاق هنانو في ثورته الأولى، من هذه الطريق، ومن جانب هذه الرفات ومن بين هذه الذكريات، نسير في موكب الوطن الذي مات أصحاب هذه القبور من أجله، فداء لحريته ووحدته، لنشيد بأعيننا رايته تركز على ذروة الجزء الذي كان منفصلاً فانضم، وضائعاً فاستُرد، ومستعبداً فاستقل.

فنحن إذن في موكب الوحدة وفي ركب الحرية، وفي ظل السيادة القومية التي بدأت فأثبتت وجودها في البرلمان في دمشق أمس، وانتهت بإثباته اليوم فوق جبال العلويين وعلى ساحل البحر، وستثبته غداً على ذروة السويداء وعلى قمم جبل الدروز، المغمورة بذكريات الشهادة والبطولة.

لم تثبت السيادة الوطنية وجودها اليوم في اللاذقية وغداً في السويداء فقط، بل أثبتت هذا الوجود في دمشق قبل كل شيء، لأن هذه السيادة لم تكن موجودة في ناحية من نواحي سورية، وقبل أن تتحرر دمشق من النير لن تتحرر اللاذقية والسويداء، فكما كان الاستعباد دفعة واحدة، جاءت الحرية دفعة واحدة هنا وهناك، ونحن نحتفل بها في دمشق واللاذقية معاً.

***

اليوم تغادر دمشق جماعة من رجال الصحافة في موكب رسمي حكومي، لا نخجل من الانضمام إليه والسير تحت لوائه، لأننا نسير في موكب من مواكب الوطن، ونُستقبل في القرى والمدن استقبالاً لم تتكبد خزينة الأمة ثمنه. ونسمع هتافات تصعد من القلوب لا من الأفواه؛ لأنها تهتف لوجه الله ولوجه هذا الوطن، لا تطلب على ذلك جزاء ولا شكوراً.

جريدة (القبس) الدمشقية، العدد (1033) 1937/1/10

حديث بثته إذاعة دمشق في خمسينات القرن العشرين

هناك شعر يحتل منزلته الرفيعة في ذروة الشعر العربي الحديث، وهناك نثر يحمل في ثناياه طابع الذوق والفكر ويدلل على مواهب في هذه المحافظة، قد يكون لها شأنها لو لقيت ما يعوزها من التشجيع.

الحياة الادبية في اللاذقية خلال الجيل الماضي

بقلم محمد مجذوب

☆☆☆

مقدمة

الادب كحياة الانسان. لها أطوارها ومراحلها ، ولها آثارها ومؤثراتها. وكما ان دراسة النفس الانسانية تتطلب الدقة في رصد العوامل الفاعلة بها كذلك يجد الباحث الادبي نفسه مضطراً لرصد هذه التطورات المتشابهة في حياة الادب.

والانسان يمر بأطواره الطبيعية من التكون الجنيني الى الطفولة فالشباب فالكهولة فتطبع كل مرحلة اثرها في الذي يليها من هذه الاطوار، وهكذا الحكم في الادب فانه يبدأ حياته تفاعلاً في اعماق النفس ثم يخرج الى مرحلة المحاولات فاذا هو ترنيمة على الشفاه ، او عبارة في الافواه ، ثم يستوي على سوقه فيأخذ طريقه مع الحياة .

والادب العربي — في مختلف مظاهره ومصادره — يؤلف وحدة تامة من حيث اتصاله بعوامل الحياة العامة في ديار العرب ومدى تعبيره عن هذه العوامل ، ولكنه في الوقت نفسه يصور مرحلة انتقالية بين الامس واليوم ، وبين اليوم والغد ، وجدير بنا حين نريد الاستمتاع بهذا الادب ان نتتبع مراحل نشأته لنبين مدى حيويته ونربط بين عوامل نهضته بدراسة ادبية محكمة .

هذه مقدمة لا مندوحة عنها للحديث عن الحياة الادبية في محافظة اللاذقية خلال الجيل الماضي، ولكن لا بد من القول بأنني لا ارمي من ورائها الى الزعم انني أورخ بحديثي لهذه الحقبة، وانما هي إلمامة سريعة ببعض نواحي هذه الحياة لعلها ان تكون نواة مغرية لبحث شامل مفصل.

بين جبلين

في

محافظة اللاذقية اليوم حركة ادبية تتماشى الى حد ما مع نهضتها المدرسية الكبرى وتسبقها من بعض الوجوه الاخرى ، فهناك شعر يحتل منزلته الرفيعة في ذروة الشعر العربي الحديث ، وهناك نثر يحمل في ثناياه طابع الذوق والفكر ويدلل على مواهب في هذه المحافظة قد يكون لها شأنها لو لقيت ما يعوزها من التشجيع.

ولطبيعة هذه البقعة من الربوع الشامية اثرها الفعال في تغذية هذه المواهب الى جانب الاثر التعليمي الذي تنشره الحركة المدرسية وحسبك ان تعلم انك واجد في كل قرية من قرى هذا الجبل المطل على مدن المحافظة نزوعاً الى الشعر واهتماماً به تكاد لا تعثر بمثلهما في اية بقعة من البلاد.

ولكن بديهي ان الطبيعة وحدها مهما بلغ اثرها من الايحاء تظل عاجزة عن بعث النهضات الادبية اذا فقدت العناصر الثقافية التي تتوفر اليوم لهذه المحافظة، واعني بالعناصر الثقافية انتشار التعليم وتكاثر المنشورات والمؤلفات التي تصل بين العقول وتمدها بالروافد المنتجة من عوامل التلقيح.

وطبيعي ان هذه العناصر لم تكن قد توافرت بعد للجيل الماضي، ولم تكن قد اطلت على الجيل الذي قبله من هذه المحافظة اللهم الا اذا استثنينا اشعاعات ضئيلة لا بد من تغلغلها هنا وهناك من آثار حملها للناس بعض الشبوخ فلم يتجاوز مفعولها حدود بيئاتهم المحلية.

لم يكن في هذه المحافظة ساحلاً وجبلاً في القرن الماضي اي مظهر مدرسي بمعناه المألوف اليوم ، وانما هي كتاتيب تقوم في بعض المدن وفي قليل من القرى لتعليم مبادىء القراءة والكتابة ، فكانت

* حديث اذيع من محطة الاذاعة السورية بدمشق.

إن المطلع على الآثار الأدبية المكتوبة في محافظة اللاذقية خلال عصر النهضة، يستطيع تأريخ منشأ الحياة الأدبية علمياً بأوائل عصر النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الامية هي الغالبة على السكان في كل مكان : أمية في الفكر، وامية في العادات ، وامية في كل شيء... يضاف الى هذا وذاك سوء الوضع السياسي وما جره من تفكك وخصومة بين الجبل والساحل انعدم معهما الاستقرار والامن في كثير من الاحيان ، ثم تلك المحنة الهائلة التي تمثلت في محاربة الحاكمين للغة العربية ايام كانت التركية هي اللغة الرسمية في دوائر الدولة ، فكان من طبيعة الواقع ان تتقلص العربية فتنحصر في الكتب القديمة وفي تعلم القرآن وتقتصر العناية بها على طلبة العلوم الشرعية وحدهم.

وبيئة كهذه ليس من شأنها ان تشجع على التجدد والافتنان في الادب ، ومهما تبلغ مواهب الرجل في مثل هذا الوسط فهي عاجزة عن التخلص من اثر الركود والانطباع بألوان المحيط، وهكذا كان الامر في ذلك الجيل.. فقد عرفت اللاذقية أيامئذ عدداً من علماء الدين في بيوتات لا تزال معروفة بتوارث الروح العلمي حتى اليوم ، ولكنهم لم يستطيعوا التفلت من قيود الجمود الا بمقدار ما اتاح لهم روح الزمن ، واذا كان هذا شأن اللاذقية فما بالك بالجبل والمدن الصغيرة الاخرى !

ولا بأس ان انقل لكم هاتين الطرفتين ففيهما ما يكفينا مؤونة الكثير من الاستدلال على هذا الواقع :

حدثني المرحوم الشيخ (سليمان احمد) انه مر ذات يوم بجماعة من شيوخه في الجبل يتحدثون في هذا البيت من شعر «ابن اللاحقي» :

« كلبني للمهمات وانواع الرزيات »

وقد اجمعوا على ان «كليني» هذه من الكلال ، وان الشاعر يشكو الى صاحبته ضعف الشيخوخة عن احتمال الشدائد، فاضطر، وكان في الرابعة عشرة من عمره ، لان يصلح لهم غلطهم مستشهداً بقول الشاعر : «.. وكل الظلوم الى حسيبه »

وهذا يعني ان شيوخ المرحوم الشيخ سليمان احمد قبل ستين عاماً لم يكونوا قادرين على التفريق بين فعل (كلّ) وفعل (وكل) !

وحدثني من أثق به ان عالم طرطوس في الجيل الماضي « الشيخ عبد الوهاب السيد » ، رحمه الله ، كان يكلف بعض الناس ان يتلو عليه شيئاً من شعر البارودي فيطرب له ويثني عليه ، وقد اتفق ذات مرة ان قال : « ان في هذا الشعر شيئاً من نغمة ابن الفارض» وكان هناك احد السامعين فلما كان المجلس التالي اراد هذا ان يقلد الشيخ في الاعجاب بما يسمع فقال : يا شيخنا.. والله لكأنه كلام الفاروطي.. » وطبيعي ان الشيخ قد جن من هذا الذي لا يفرق بين الفارض والفاروطي !.

زد على هذا كله ان (الجريدة) كانت حتى ذلك اليوم شيئاً غريباً عن معظم سكان هذه المحافظة وقد ادركتُ الناس في طرطوس يتكبكبون على من تقع في يده نسخة من (القرزيتة) – وهكذا كانوا يسمونها – ليستمعوا الى ما فيها من اخبار عجيبة قد لا يسمع بمثلها الجيل المخلد الى عزلته يومذاك.. هذا بينما كانت اللاذقية قد بدأت تعرف كثيراً من الصحف الوافدة من الخارج ثم لا تلبث ان تعرفت المطبعة واصدرت بعض الصحف المحلية منذ اكثر من ثلاثين سنة.

وبعد هذه المقارنة السريعة نستطيع ان نضع ايدينا على اهم المشخصات الذاتية لادب الجيل الذي نتحدث عنه ، وبوسعنا كذلك ان ندرك مدى اثرها في التمهيد لما تلاه من الظواهر الادبية فيما بعد.

من التقليد الى الانطلاق

انه

المطلع على الآثار الادبية المكتوبة في محافظة اللاذقية خلال عصر النهضة يستطيع تأريخ منشإ الحياة الادبية علمياً بأوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثم هو يستطيع بمتابعة تطور هذه الآثار من عهد الى عهد ان يرصد مظاهر هذا التطور سواء من ناحية الاساليب او الافكار.

اما الاسلوب فقد تبين لي انه يبدأ حياته متأثراً الى حد بعيد بالتعابير العامية ثم يمضي متجهاً الى اللغة الفصحى الخالصة، وقد رأيت ادلة على ذلك حتى في اوزان الشعر نفسها ، فهناك مثلاً قصيدة بقلم المرحوم الشيخ « عبد الفتاح المحمودي» نظمها قبل ثمانين عاماً في تهنئة صديق له من آل صوفان يقول فيها :

قد انتج هذا الزفاف شكل جماء والبشر عليه اقام أوضح برهان
والفخر غدا في هذا الزفاف موافي حقاً ومصافي الرضا محمد صوفان

وهي قصيدة لم استطع ان احقق لها وزناً في البحور الستة عشر، ثم هي اقرب الى العامية وزناً واسلوباً.

ومما يدلنا على اثر التطور في اذهان هؤلاء الشيوخ – رحمهم الله – ما رواه لي بعض احفاد المرحوم المحمودي من انه ظل حتى آخر حياته آسفاً لنشر ديوانه المسمى « سفير الفؤاد » مع ان في صفحاته منظومات تعتبر من احسن النماذج لشعر عصره في محيط اللاذقية وفيه ابيات سارت مسير الحكمة على ألسنة الناس منذ ايامه وذلك كقوله :

إياك اياك اخوان الزمان فهم ذُخوّان عهد فلا تركن لخوان

وقوله :

لو قيل لي: ماذا يسوءك في الورى لاجبتهم : تفهيم من لا يفهم

في مطلع القرن العشرين بدأ الأدب مرحلة جديدة، فمن ناحية الأسلوب يتخفف من التكلف ويتخلص من قيود البديع ومن ناحية الأغراض يأخذ في طريق التعبير الشخصي ويتحدث عن نفسه ومجتمعه

وبالطبع لم يكن اسف الناظم على نشر مجموعته الا ظاهرة من التطور العقلي والادبي الذي صار اليه فيما بعد.

واما الاغراض والافكار فهي تبدأ انطلاقها كذلك من نقطة التقليد الصرف لاغراض السابقين من شعراء عصور الانحطاط اي في المدح والتهاني والتاريخ ، وبخاصة موضوع المدائح النبوية والاستغاثات عن طريق المعارضات او التشطير والتخميس لبعض الاشعار الشهيرة.. ولكن هذا الادب في مراحله التالية حيث تشتد قوته يميل الى الاكثار من المحسنات البديعية وخصوصاً الجناس والمقابلة والطباق تأثراً بشعراء عصر الانحطاط انفسهم ثم لا يلبث ان يصل الى مطلع القرن العشرين حتى نراه يبدأ مرحلة جديدة في الاغراض والاساليب معاً. فمن ناحية الاسلوب ينزع الى التخفف من التكلف والتخلص من قيود البديع ، ومن ناحية الاغراض يأخذ في طريق التعبير الشخصي فاذا بالشاعر يتحدث عن نفسه وعن مجتمعه ويرسل النكات ويساهم في النقد الاجتماعي فيدل بذلك على تأثره بالروح العامة التي سرت في شعر النهضة.. وهذا تطور طبيعي.. ذلك لان هؤلاء الشعراء بدأوا يتصلون بنتاج البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومطران والرصافي ومعاصريهم فيتذوقون ثمرات مواهبهم ويتحسسون من هذه الاتجاهات التحريرية الجديدة التي تمثلها اشعارهم وكذلك جعلوا يستفيدون من تكاثر المنشورات المختلفة من دواوين الفحول القدامى ومن الكتب الحديثة الاخرى ومن المجلات والصحف المتعددة.. هذه المنشورات التي اصبحت في متناول الجميع بعد ذلك الزمن الذي ندرت فيه الكتب والمقبلون عليها فانحصر اكثرها في مكتبات خاصة موقوفة على اصحابها لا يفيد منها في الغالب سوى مالكيها وطلبتهم الخصوصيين.

وهكذا تابع التطور طريقه في اعداد الاذهان وارهاف الحس الفني ، فاذا بهذا التطور يقدم للناس عدداً من الشعراء الذين نعتبرهم الحلقة القريبة من سلسلة الحياة الادبية في هذه المحافظة منهم من توفاه الله ومنهم من لا يزال بين ظهرانينا . ونذكر من هؤلاء. واولئك على سبيل التمثيل لا الاحاطة المرحومين المشايخ حسن المحمودي ، وسليمان أحمد ، ومحمد سعيد ، وعبد الوهاب السيد ، وعبد العزيز وراغب أديب ، والاستاذين منح هارون وادوار مرقص .. ثم الاحياء الاساتذة: سلامه الصوفي ، وسعيد مطرجي ، وعبد اللطيف سعود ، ومن الاعتراف بالجميل ان نذكر لهؤلاء واولئك واخوانهم فضلهم على جيلنا الحاضر الذي ساهموا بنصيبهم في اعداد العناصر الموجهة له .

اراني مضطراً للاشارة الى انني عمدت للكلام على الشعر دون النثر من ألوان الحياة الادبية وذلك لان مبادىء النهضات الادبية عادة ترتكز على مادة الشعر بوجه خاص . هذه المادة التي هي اقرب الوان الادب الى الحياة الاولية ، وانما يأتي دور النثر الفني في مرحلة التركز حين تستقر الخطى في طريق المدنية ، هذا مع العلم بان هناك بعض المكتوبات والمؤلفات من آثار الجيل الماضي ولكنها لا تصور الحياة الادبية بمقدار ما تتمثل في هذا الشعر الذي سأعمد الى عرض بعض نماذجه .

***

عرضنا في ما تقدم من حديثنا لقسمين من ادباء المحافظة ، وقد حددنا زمن الاول في خلال النصف الثاني من القرن الغابر وحصرنا عهد الجيل الثاني في ما بعد ذلك . وقد بات علينا ان نتحدث عن اوساط كلا القسمين ومجالسها الادبية سواء في الجبل او الساحل .

اما الجبل فبالرغم من ان الحياة فيه عادة بطيئة التغير فقد خضع بدوره لسلطان التطور الذي احدثته حركة المواصلات بين انحاء البلاد ، ثم حركة التعليم الابتدائي الذي يوشك ان يعم سائر اجزائه ، وأبرز مظاهر هذا التطور يبدو في اوضاع شيوخه وطلبتهم من بغاة العلم ، فقد كان الشيخ من هؤلاء يقضي بعض ايامه في التنقل بين القرى يتصل بأمثاله وبالراغبين في الاطلاع ، وربما جعل الشيخ من بيته اشبه بمدرسة يؤمها الطلبة من مختلف انحاء الجبل ، وقد يكلفه ذلك ان ينفق على هؤلاء بدلا من ان يستفيد منهم في الغالب . وطبيعي ان هؤلاء يحملون من شيوخهم فيما يحملون من مبادىء العلم ، اقوالهم وأشعارهم وبعض محفوظاتهم يتناشدونها ويحاولون النسج على منوالها . وهذا كله قد اعتورته يد التغير في هذه الايام اذ تقوم المدرسة الابتدائية بكثير من مهام الشيوخ وينصرف العدد الكبير من التلاميذ الى المدينة ليتموا تحصيلهم في الثانوية او الجامعة. حيث يجربون مواهبهم في المشاركة بالحياة الادبية على اختلافها .

وليست المدينة بالبعيدة عن ذلك الجو وهذا التطور بعداً كبيراً ذلك ان مجالس العلم في اللاذقية مثلاً كانت ، كما اسلفنا ، خاصة محدودة ، فهي تتمثل في زوايا الشيوخ حيث تقام العبادات وتلقى الدروس على العامة وبعض الخاصة. وكان لبعض العائلات الدينية هناك زواياها وشيوخها ، ولها مكتباتها ، وكان الشيخ يصرف بعض وقته في تدريس العوام والى جانبهم تلاميذ مداومون يلقي

الشيخ سعيد مطرجي

الشيخ سليمان أحمد

جن وسحر وتدجيل وشعوذة ونابع لأيامى او لأيتام !
أضحت حقائق علم الدين عندكم مضاعة بين تخييل واجسام

ويمتاز هذا الاديب عن سائر معاصريه بانه يستمد عناصر ثقافته الكبرى من لزوميات المعري ، وقد ترك على آثار ضرير المعرة تعليقات وفيرة وهامة من شأنها ان تلقي عليها ضوءاً جديداً لو خرجت الى حيز النشر .

وهناك مقطوعات كثيرة من شعره هي اقرب ما تكون نسباً الى هذه اللزوميات سواء في طريقة النقد او الاسلوب وحتى في لزوم ما لا يلزم ، ولو هو قيد نفسه كالمعري بالتزام ما لا يلزم فيها جميعاً لكان من العسير تفريق آثاره عن آثار استاذه .

ومن اجل استكمال الصورة المنشودة من هذا العرض نلتفت الى نوع آخر من الادب فيه طرافة وفكاهة ، ونتقدم من اصحابه اللاذقيين الشيخ سعيد مطرجي، هذه الشخصية التي لا حاجة الى الحديث عن ظرفها وخفة ظلها ففي وسعنا ان نتذوق كل ذلك في هذه المقطوعات التي اخترناها من شعره .

لنسمع اليه يعزي نفسه لاخفاقها في المحاماة وقد رغب في مزاولتها طلباً للعيش فأبت ان ترغب في صحبته :

أردت بأن اكون أباً لكانو وكانو ما أرادتني أباها
لذاك تركتها هرباً بديني ورحت أروم لي بيتاً سواها

ولنستمع اليه كذلك يلوم الشباب في تهافته على اللهو وتقاعسه عن المجد، فيذكر اسم « قوزين » وهو خمار قديم في اللاذقية واسم « روزا » وهي احدى الراقصات التي جاءت المدينة في تيار الاحتلال :

أضحت جيوبكم يا قوم مجدبة لما غدا روضها مرعى لقوزينا
اغركم قول « روزا » وهي راقصة «زيدي دلالك زيدي اليوم دلعونا»

***

ربوا لنا هر علم في مدارسكم لعلنا لا نرى للجهل « جردونا »
ماذا يضركم يوماً بني وطني لو اخترعتم بهذا العصر (ماكينا)
هذي اوربة بالبالون قد عرفت ما في السماء، ولم نعرف أراضينا
لسنا نقلدهم علماً ومعرفة لكن نقلدهم « بوطاً وبسطونا »

وللاستاذ المطرجي معارضات تحمل طابع هذا الظرف الممزوج بالتفكير والنزوع الى الاصلاح منها واحدة لقصيدة الحلي « سل الرماح العوالي . » وفيها يقول :

إنا لشعب أبت اقوالنا عملا نقول ما ليس بعدينا وبجدينا
وعرّ مسالكنا، خُلفٌ مقاصدنا خلط جرائدنا ، وهم دعاوينا

واخيراً نختم حديثنا بكلمة عما يتصل بالحياة الادبية في طرطوس ، ولا مندوحة قبل ذلك من التنبيه الى وضع هذه المدينة في العهد الذي نتحدث عنه ، ذلك ان طرطوس ، التي تعد اليوم وسطاً ثقافياً، اذ يبلغ عدد الطلاب في مدارسها الابتدائية والثانوية ما يوازي خمس السكان، لم تكن حتى مبدأ الاحتلال سوى قرية ساحلية تشكل ناحية من قضاء طرابلس ، فليس فيها من وسائل العلم سوى بعض الكتاتيب الصغيرة الى جانب مدرسة اولية لا لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم يكن هنالك من يحسن شيئاً من قواعد العربية سوى واحد او اثنين من شيوخ الدين وبعض الغرباء من الموظفين. ولكن طرطوس عرفت في اواخر القرن التاسع عشر عالماً ازهرياً من ابنائها هو المرحوم الشيخ عبد الوهاب السيد الذي ولي القضاء في عدة مدن ثم استقر مدرساً في طرطوس حتى توفي سنة ١٩٢٦ . ولقد كان لهذا الشيخ يد في تنوير الاذهان وحفز بعض الشباب على تذوق الادب بما كانوا يسمعونه من منظوماته ودروسه فجعلوا يحاولون النظم ولكنه نظم يعوزه صحة اللغة وان توفرت له السليقة والاذن الموسيقية .

وقد ترك الشيخ عدداً من القصائد نظمها في بعض المناسبات منها مدائح نبوية وشخصية ومنها في الرثاء وفي المبادىء الفقهية ، وقد اخترت من شعره هذه الابيات من قصيدة طويلة نظمها قبل نصف قرن يمدح بها متصرف طرابلس « حسني سيفي » عند قدومه طرطوس مع قوة من الدرك لقمع حركة عصيان في بعض القرى :

علاكم لا يناله علاء فكيف ودون قدركم السماء
وسامي مجدكم فوق الثريا رقيم ما لرفعته انتهاء

الى ان يقول :

سلكت طريقة الفاروق فينا بعدلك فازدهى هذا « اللواء »
أتيت لنا السلامة بعد أن قد دهتنا بالخطوب الاشقياء
وامنت السبيل لقاصديه فامست بالحلى تسري النساء

ومن احسن ماعثرت عليه من شعره هذان البيتان اللذان كتبهما عند زيارته ضريح أبي ايوب الانصاري في الاستانة ، وكان قد رحل اليها كغيره من طلبة الوظائف .

لي يا ابن زيد في حماكم حاجة أرجو بجاهكم الاله قضاها
حاشا أرد وقد وقفت ببابكم وببابكم حطت ركائب (طاها)

وهنا اقف لاقدم عذري في هذا الاجتراء الذي اضطرني اليه ضيق المقام، فأنا اعلم كما تعلمون ان هناك في اللاذقية وفي جبلة وفي الجبل ادباء كان من حقهم الا تهمل آثارهم ولا يغفل ذكرهم، وعسى ان تتاح لي او لسواي فرصة اخرى تسعف باستدراك ما فاتني من ذلك .

طرطوس - سوريا محمد مجذوب

مجلة (الأديب) اللبنانية آذار/ مارس 1950

أصوات نسائية من أدب اللاذقية

شهد النصف الثاني من القرن العشرين بروز عدد من الأصوات الشعرية النسائية في اللاذقية، وقد حققت هذه الأصوات حضوراً لافتاً في الأدب السوري، ونشر نتاجها في كبريات الصحف والمجلات الأدبية في عصرها، وتركت بصمة لا يمكن تجاهلها في تاريخ الأدب. هنا نصوص لثلاث شاعرات: عزيزة هارون، وهند هارون، ودعد حداد (العربي القديم)

دعد حداد 1937 - 1991

مخاطرة أدبية

تكتبها هذا الاسبوع : دعد حداد

مهداة الى الذين « يفلسفون » الامور بشكل يشوه جمال الحياة الحقيقي .

كانت النجمة الذهبية تلمع في السماء الحالكة ، حينما علا صوت ضفدعة تاهت عن النبع الاصلي .. وأخذت شجرة كبيرة وارفة تميل بحركات متواترة الى جانب النهر ...

أما الظلان الهائمان فقد كانا يتأرجحان في الظلام ، ويسيران بلا توقف في الدرب الطويل ، وفي نهاية الطريق كان «المعبد المقدس» ...، فقد كان ينبعث عن بعد رائحة بخور توحي براحة .. حزينة .. واليفة .

وانبعث الصوت العميق الاجوف :

ـ الى أين المسير ؟!

ورن صوت ناعم :

ـ لست أدري ؟!

حملت الريح ورقة متعبة وحطتها بعنف فوق رأس طفل صغير ، انتفض ونظر بعينين مدهوشتين الى مصدرها وأرعبه الخريف !

وتلمست عجوز طريقها بواسطة عصاها ! وانحنت بشراهة لالتقاط ما ظنته ورقة مالية ! ولكنها فجأة اشمأزت فقد كانت ورقة يابسة صفراء من أوراق الخريف ...!

أما الشحرور فقد غنى بحزن وأسف وقال :

لقد أعادوا للانشودة كل الصفاء الاصلي العذب لما أطربتني ! أريدها جديدة ! جديدة في كل شيء ! أريدها حقيقية ! حقيقية في كل شيء ..!

والتقى الظلان عند شجرة «ياسمين» وفاحت رائحة حالمة نفاذة... وافترق الظلان وفي يد كل منهما زهرة لم تتفتح .

ابتسم القمر بذهول ! وفجأة اكفهر! واربدت السماء !

واختفت النجمة الذهبية ! ومن بعيد نعق غراب! وساد صمت رهيب..

وعاد الصوت العميق الاجوف :

ـ هل من شيء ؟!

وأجاب الصوت الناعم :

ـ لست أدري !؟

ورد الصوت العميق الاجوف :

ـ لعلها الاقدار .

فأجابه الصوت الناعم باكيا :

ـ لعلها الاقدار .

سار الظلان من جديد .. سارا .. حتى كاد الدرب ينتهي بهما الى المعبد ... وبدون أن يشعرا كانت خطوات تقترب في الظلمة ، وأحسا فجأة بيد متشنجة تمس أكتافهما بتتابع .. وأمرتهما بالوقوف ..

التفتا بخوف وغضب.. كان حارس المعبد ...

أجابا بصوت واحد :

ـ اننا لا نخضع لمشيئة أحد .. اننا نكيف مصيرنا بأنفسنا ، اننا أح...

والتصقا ببعضهما بخوف وتيقظ وحذر ...

كانت جدران المعبد تتسع رويدا رويدا في الظلام حتى شملت العالم بأسره .

وقال الصوت العميق بخوف :

ـ سأحملك حتى نهاية العالم ..، سأبتعد بك عن هذه الارواح الشريرة ... سنعيش في الجزر البعيدة ... «ولهث وهو يكمل» : سنحيا في أعماق البحار ... سنرتد الى الغابات الكثيفة ...

سنصعد الجبال الشاهقة ... لا بل سنصعد الى مكان لم تطأه قدم انسان من قبل .. سنـ...

ابتسم حارس المعبد وأشار الى ما حوله ، وكان ينقل يديه في الفضاء كأنما يلمس أشياء لا وجود لها وقال :

ـ جميل ! جميل !.. انك شاعر حقيقي أيها الشاب ، ولكنك لن تتخلص من سيطرة المعبد لانه راقد في أعماقك أيضا .

مجلة (الجندي) السورية 13 / 8 / 1963

1923 - 1986

خيط المشيب

للشاعرة عزيزة هارون

وأفقتُ من حُلمي على خيط رفيع من حرير
أهلا بخيط الشيب في رأسي يهدهد من غروري
ماذا جنيتُ من الصبى الوهاج غير دم الشعور
ماذا جنيت من العبير لقد أرَقتُ سدًى عَبيري
وسكبتُ في نار الشقاء وبؤسها أشهى خموري
أنا لم أزل أحنو على الحُلُم المدلَّه في ضميري
أنا لم أزل أبكي وقلبي لم يزل غضَّ الشعور
أنا لم أزل كالزهر أحيا للعشيَّة والبُكُور
عهد الشباب بنفسي المِمراعِ صخَّاب البحور
وحبيبي الفتان حُلم في النسائم والزهور
أنا إن بكيت على الشباب فإنه عَبَقي ونوري
وأنا التي بين السطور تفيض بالنجوى سطوري

عزيزة هارون ـ اللاذقية

مجلة (العربي) الكويتية أيلول/ سبتمبر 1961

1927-1995

نجوى هارون

هند هارون

مهداة الى روحك ـ يا عمار ـ في عيدك الثامن عشر

« خذ حياتي » ليتها كانت فداء للقدر
« خذ دمائي » ليتها الترياق .. يجتاح الخطر
« ملء عيني » دمعها نار .. وقد غام البصر
« مل قلبي » نبضه دفق لآلام البشر
عيدك اليوم .. عذابات فلى وقع الوتر
عيدك الاوصاب ذرات .. على عين الزهر
وأنا .. في غربة الانسان .. انسان عبر

★ ★

يا وحيدي .. كنت في صدري وعيني الشعاع
وانا أحياك .. يا عمار .. في دنيا الصراع
لم يلح لي بعد ان جزت الدنا .. الا الضياع
وغبار الارض .. شد الناس .. اغرى بالمتاع
غير اني عندما ادعوك .. ينزاح القناع
وارى طيفا حبيبا .. جاء مفتوح الذراع
وأحس القبلة الحرى .. وكم اخشى الوداع
ثم تمضي .. في سفين الله .. مرفوع الشراع

★ ★

آه .. ما أقساك يا عمار .. في ليل المحن
آه من ضعفي .. وقد قاومت اعصار الزمن
تنزف الالام .. انسانيتي .. تأبى الوهن
وأرى الصغرى .. صغار النفس .. في أرض الفتن
وأرى الايمان .. في الاعماق .. حقا مرتهن
وشموعا .. تجعل الظلمة .. دربا مؤتمن
غير اني .. امك الثكلى .. وقد كنت المجن
وكياني ضائع .. لم يبق .. في صدري .. سكن

★ ★

كلما .. لملمت .. جرح الموت .. في نفسي الابيه
كلما .. هدهدت آلامي .. بألحان خفيه
وزرعت الصبر في صدري .. وقاومت المنيه
ورسمت البسمة الحيرى .. بألوان نديه

مجلة (الثقافة) الدمشقية - أيار/ مايو 1978

حَمَلتْ سواحل اللاذقية بنكهة دمشقيّة

الشاعرة الراحلة دعد حداد ذلك التفصيل السوريّ الخاص

بقلم: عمر الشيخ

عادة ما يشكّل الحزن مادة خصبة للتفكير الشّعريّ، لا بل إن النصوص التي تعكس معاناة إنسانيّة خاصة، تجد رواجاً واسعاً، وتماهياً كبيراً من الناس الذين يهتمون بالشّعر. وحين يكون ذلك الحزن محمّلاً بآلام، تتدفق من كّل جوانب الحياة الاجتماعيّة، السياسيّة، والنفسيّة، العاطفيّة، الأسريّة... يصبح من الصعوبة بمكان تفريق حزنٍ عن آخر، كأن القصيدة تقرّب الوجع الجمعيّ، وتجعله صوتاً للعالم الوحيد الذي يرمّم وحشته. إنّما بالنسبة للشاعرة السورية دعد حدّاد (1937-1991)، فتلك النظرة لا تبدو منصفة برأيي، فحزنها يشبه شِعرها، إنّه أناها تماماً. شاعرة خاصّة دون منازع، تكتب كأنّها تتنفس وتصرخ وتبكي وتضحك وتعشق وتيئس وتكتئب وتتلاشى... في آن واحد.

لا يمكنني أن أنسى كيف غرقتُ في انسيابية كلماتها، خصوصيتها، بساطتها، قوّتها الإنسانيّة، ووضوحها الذكيّ، منذ اللحظة التي قرأتُ فيها كتابها "كسرة خبز تكفيني"، عرفت تماماً أنّها لا تعمل على القصيدة كنتاج إبداعي، لوحة، أو منحوتة، أو ربّما نص أدبيّ بليغ، لا، إنّما تقطعها بضربة واحدة في كّل مرة من روحها، ثّم تضعها على الورق، وتتركها تنبض باستمرار في كّل مرة نقرؤها. ثّمة طاقة استثنائيّة لإيقاع كلماتها، طاقة شِعرها الذي لا يشبه سواها، ذلك هو مفتاح الدخول إلى عالمها.

حين أتذكر البحر في سورية، تأتي دعد حدّاد حاملة سواحل اللاذقية بنكهة دمشقيّة؛ لأنّها عاشت أيامها الأخيرة في العاصمة، هكذا أتذكّر، تأتي وهي تخبرنا عن "السمك الحُرّ" وكيف كانت تراه:

"من خلف زجاج بحريّ../ أراك دامع العينين/ أيها السمك.. اللّعوب../ أيّها السمك الحرّ/ والخرنوب.. أيّها الأزرق.. الورديّ../ في مساءات../ الشتاءات.../ أراك../ دامع العينين../ أراك.." الواحد ليلاً، 17 نيسان 1986.

بمنتهى الوجع، تضعنا الشاعرة أمام صوتها، تؤنسن الأشياء، وتمزجها بذاتها، لا تلتقط الصّور، إنّما تمزّق من طرقات الحياة أجزاءً؛ لتشكل صورتها الشعريّة، تتذكر: "خيانات الرفاق../ والمقابر المهجورة../ والصخور والمخابئ.../ والحبّ المخنوق../ والألوان../ والحرائق../ وشتائم الباعة../ وغيرة المحبين..."، تتداعى الكلمات ومن خلفها المشاهد تتصاعد، هنا وهي تحكي عن اللاذقية، تقفز أمامي الشوارع السوريّة عند السّاحل، رطوبة الهواء، وقلق التفاصيل المُتساقطة من عيونها، وأنا أقطن وسط البحر اليوم، هنا في قبرص، صرت أفهم تماماً لغة البحر، و شاركني المعادل الفني في مخيلتي لذلك الفهم الآن، وهو تجربة دعد حداد الشعريّة، فالنصوص بين يدي تعود من حمّامها الشمسيّ، بعد زيارة الأجواء المخنوقة في سورية، وتذكّرني ما هي أجواء الثمانينات التي ولدت فيها هذه النصوص من مجموعة "كسرة خبز تكفيني"، تذكراً يضع دمشق واللاذقية في قاسم مشترك لصوت مختلف في الثقافة السورية، فالمرأة التي لا تهتم لشكلها، ولا لسلوكياتها تعيش حرة مثل ما تكتب، تعيش شِعراً، مثل ما تتمزق أفكارها المتمرّدة، أمام عبثيّة الحياة العسكريّة التي كانت تعبق برعب تلك الحقبة من تاريخ سورية، وهنا لا بدّ لي من الإشارة إلى الشاعر السوري الراحل بندر عبد الحميد، الذي كان يحكي لي عن يوميات خاصة حول دعد، وقد منحني بمنتهى الكرم كّل كتبها الشعرية، بما فيها كتاب "ثّمة ضوء" الذي لم يُنشر، وظهر بعد رحيلها مطلع التسعينيات، وبسبب تلك الجلسة مع "بندر"، طبعتُ نسخة خاصة من الأعمال الشعرية الكاملة لها، عبر دار نشر سورية، وكان الثمن هو نسخة للناشر ونسخة لي فقط، ونسخة لصحفية كانت تكتب من دمشق مع جريدة (الحياة). وفي ما بعد، وبسبب تلك المحادثات الشعريّة عن دعد حداد، عادت الشاعرة للضوء، مع صدور أعمالها الشعريّة بدمشق عن الدار نفسها، منذ سنوات بفضل بندر عبد الحميد، الشاعر قبل كّل شيء.

لا أستطيع استحضار دعد حداد، دون الوقوف طويلاً عند الدلالات العميقة القادمة من بساطة نصوصها، فهي تعطيك المشهد المأخوذ للتو من واقعها وخيالها معاً، وعلامات النزيف تتفرس فيك من خلاله، ما إن تحاول الوصول إلى موسيقى القصيدة، حتى تنهشك تلك اللغة الزاخرة بمفردات الحياة، دون تكلف أو بلاغة مصطنعة، على نحو:

"ها هو النعش الأزرق الوحيد../ ها هو الثوب الوحيد../ احذفوني زورقاً في البحر../ هذه الطيور البيضاء../ هذا التلون في النفس الإنسانية../ هذا الجنون المشحون../ وآه.. تضيفون موسيقى؟!/ ورحلت.. رحلت مفلسة إلى داري../ آه.. يا للوجوه المسرحية../ وللأيدي.. غير الصديقة../ يا للتوابيت السوداء كم هي كثيرة!/ سياراتهم..!!؟ وداري مقفرة.. وبطتي.. وحيدة في داري!" 9 آذار 1986.

إنها تدعونا؛ لنرسم معها الصورة، لا تريد للقصيدة أن تبدو كما لو أنها قطعة مقدسة، بل هي شراكة متخيلة لوجع النفس الإنسانية، ولتلك الأرواح التي تمثل الحياة الكاذبة، لا تعرف ما تعنيه الصداقة، إن التوجه هنا إلى تسلسل بصري من الوقائع والنتائج التي كانت الشاعرة تراها وتعيشها، يحيلنا إلى خاتمة مفتوحة من الوحدة، تلخصها الدار المقفرة، والبطة الوحيدة، والسيارات التي بشكل التوابيت، تمر فاخرة أمام تعاسة تلك البيوت! أليست بيوت السوريين تلك؟ ألم تكن عربات السلطة السوداء الكثيرة، تأخذ أموال الشعب؛ لتحرس الطغيان وزعماءه؟ ألا يبدو كل ذلك تمرّداً شِعريّاً بطعم البحر؟ تمرّداً دون أمل بشيء!

نستطيع أن ندخل إلى شعر دعد حداد من كّل مكان، يخطر في بال الجنون، من البحر، من الحزن، من الشوارع المعتمة، من الخوف، من الحبّ المكسور، من اليأس، من الحياة بكل ما فيها من خيبات ومحاولات، حتّى من عكس الحياة، من الموت، فقد اقترحت علينا الشاعرة أن نفعل مثلها، كما في كتابها "تصحيح خطأ الموت"، بأن نعيش للحظة الأخيرة "أيها الدرب الموحش!/ يا درب الحب!/ سأعد خطواتي،/ فالوحدة علمتني العدّ../ الحارس كان بالمرصاد../ عينان خبيثتان ومنظار/ أسرعت قبل أن تخطئ قدمي،/ قبل أن يهبط الليل، وحدي،/ سأعد خطواتي.. فالوحدة، علمتني العد" ذلك الكتاب الذي جمعت نصوصه المكتوبة، منتصف سبعينيات القرن الماضي، كانت توثق من خلاله سطوة العسكر على حياة السوريين، مشاهد الفقر والتعاسة خصوصاً في قصيدة "استعدوا، أدوات التحنيط جاهزة"، والتي تحمل في مواضع كثيرة منها عبارة رمزية من نوع: "ارفع طفلك فوق الغيم، قد يتلوث بالبيئة"، كما سوف نقع في هذه القصيدة على "صرخة مشتركة للفلاحين"، وعلى مأوى رائع "في حفرة"، ونضحك حتى البكاء؛ لأن "الفئران ترفع بندقية!". إنها صوتنا المؤجل، هذه الشاعرة، إنها يقين مضطرب للحقيقة المغيبة، ألم تقل:

"إنّكم نبلاء أكثر من اللازم أيها البشر، / من خلال الزجاج الملّون،/ وأنا.. ربّما أكثر نبلاً،/ من خلال الزجاج المحطم.." 19 شباط 1976.

أيّة محاكاة لعالم من الخفايا الشعرية المختلفة ذاك! كلّما حاولت أن أحيط بشيء في قاموس هذه الشاعرة البحريّ، سقطت في لعبتها التي لا يمكن تجاوزها، وهي: الصدق. إنها صادقة إلى حدّ مرضيّ، وملهمة بين أزمنة مختلفة، ويظهر تطور أسلوبها ما بين السبعينيات والثمانينيات، وتبرز من خلال نصوصها سمات المجتمع السياسي، الأجواء المعيشية، تقليص مساحات الحريّات، تراجع الإنسانية على حساب القتل والرعب. ولم يكن أمام الشاعرة سوى تلك البساطة في تركيب الصور؛ لتعيد بعثها حيّة دون رتوش، تقاوم القبح بجمال كلماتها:"الفرح، والعصا، وشوارب جدي،/ تختلط بفنجان الشاي، المعقم/ ووجود الأصدقاء، والأعداء،/ والحنان المصنوع، لهذه اللحظة../ أقدم لكم نفسي: دعد حداد./ أديروا ظهركم المنحني الآن، وفوراً،/ فعلى أقفيتكم، يرتسم شبح ما../ ود أن يقول شيئاً ما../ دون أن يعي../ إنه شبح مرتسم على قفا/ طال انحناؤه".

إذا كان ثّمة من تحية نرفعها لذكرى دعد حدّاد، السورية ابنة اللاذقية، فهي أن نقرأها باستمرار للأجيال القادمة، وأن تكون جزءاً ثقافياً إبداعياً من الذاكرة الثقافية لسورية ما قبل ثورة 2011:

"ها هنا وجه الجلاد/ خذي سيفك../ اغمديه.. في القلب../ تتفتح زهرة حمراء../ أهديها لحبيبي../ مرحبا.. بالبداية.." صيف 1987.

شكراً يا دعد على كّل هذا الشّعر السوريّ الخاص.

تحكي عن اللاذقية تقفز أمامي الشوارع السوريّة عند السّاحل، رطوبة الهواء، وقلق التفاصيل المُتساقطة من عيونها، وأنا أقطن وسط البحر اليوم هنا في قبرص

تبرز من خلال نصوصها سمات المجتمع السياسي، الأجواء المعيشية، تقليص مساحات الحريّات تراجع الإنسانية على حساب القتل والرعب

إذا كان ثّمة من تحية نرفعها لذكرى دعد حدّاد، السورية ابنة اللاذقية، فهي أن نقرأها باستمرار للأجيال القادمة

اللاذقية
مدينة كلّ الأطياف وكلّ الأوجاع

العميد الركن: أحمد رحّال

يُخطئ الكثير من السوريين، عندما ينسبون مدينة اللاذقية للطائفة العلوية؛ وكمدينة وُلدتُ فيها وعشت فيها معظم حياتي، أذكر أنه حتى عام 1979 لم يكن هناك من أحياء علوية في المدينة سوى حي الرمل الشمالي وكّل ما تبقّى للسُّنة والمسيحيين

تلك المدينة التي تغفو على شواطئ البحر المتوسط، مدينة ذات سحر خاص، يلامس فيها البحر جبالاً رائعة الجمال، كانت تعيش فيها كل الأطياف السورية دون تمييز، وككّل المدن الساحلية كانت اللاذقية تلك المدينة المنفتحة على ثقافات العالم المختلفة، بساطة أهلها، منحتهم الكثير من محبّة زوّارها وضيوفها. حتى عام 1970 لم يكن أهل اللاذقية يفرّقون بين مَن يقطن تلك المدينة، فاختلطت أسواقها، وفي شوارعها الغربية قرب الميناء التجاري انتشرت المقاهي والبارات والمطاعم الغربية؛ لتخدم بحّارة السفن التي ترسو على أرصفتها، وبتناغم ما بين الماضي والحاضر عاش سكان اللاذقية، وكوّنوا نسيجاً اجتماعياً، قّل وجوده بأماكن أخرى.

يُخطئ الكثير من السوريين، عندما ينسبون مدينة اللاذقية للطائفة العلوية؛ ظناً أنها مدينة للعلويين، وكمدينة وُلدتُ فيها، وعشت فيها معظم حياتي، أذكر أنه حتى عام 1979 لم يكن هناك من أحياء علوية في مدينة اللاذقية، سوى حي الرمل الشمالي، وكّل ما تبقّى للسُّنة والمسيحيين، ولم تكن هناك أسواق للعلويين داخل المدينة سوى سوق البلدية، وهو عبارة عن سوق مسقوف، تعداد محلاته لا يتجاوز 10_15 محلاً صغيراً، قرب ساحة البلدية القديمة، التي انتقل مبناها لاحقاً إلى شارع الكورنيش في حي مارتقلا، قرب نادي الضباط العسكري على شاطئ البحر.

كانت مدينة اللاذقية كسائر المدن السورية، ورغم انفتاحها على البحّارة الأجانب مدينة محافظة، وكان من يُضبط مُفطراً جهراً بشوارعها في شهر رمضان، يُوضع في السجن، حتى ما بعد انتهاء عيد الفطر المبارك، وكان لزاماً على المطاعم في شهر رمضان أيضاً أن تضع ستارة كبيرة على بوّاباتها؛ لمنع رؤية الطعام، ومن يتناول الطعام داخلها، لكن يد نظام الأسد الأب، امتدت لتلك المدينة كمعظم المدن السورية، وحاولت العبث بأحيائها وسكانها، و"علونتها"، لكن كل تلك المحاولات كان نصيبها الفشل، فكان قرار حافظ الأسد نقل كّل مؤسسات الدولة إلى خارج المدينة، وبالتالي إفراغها من أهميتها، وزخم شوارعها وأسواقها الداخلية. ترافق نقل مؤسسات الدولة من داخل مدينة اللاذقية، مع خطوة أخرى تمثّلت ببناء حزام سكاني"علوي" على محيط المدينة، فكانت أحياء مشروع الزراعة، والمشروع السابع، والمشروع العاشر، ومشروع الدعتور، ومشروع الريجي، وغيرها من المشاريع التي أحاطت بمعظم أحياء مدينة اللاذقية، وإليها نُقلت مؤسسات الكهرباء والماء، وكذلك مقرّات الأمن، وأمانة السجل المدني، وكّل ما يتعلّق بخدمات المواطن، باستثناء مبنى قيادة الشرطة الذي بقي في مكانه، في بداية شارع بغداد، قرب الميناء التجاري.

مع العقوبات الغربية على سوريا في ثمانينات القرن الماضي، ظهرت عصابات التهريب التي تتبع جلّها للطائفة العلوية، ولأقرباء الأسد، فكانت مافيات منذر الأسد، وفواز الأسد (أبناء جميل الأسد شقيق حافظ الأسد)، وكانت عصابة شيخ الجبل (محمد الأسد)، وعصابة هلال الأسد. مع تلك العصابات اتشحت المدينة بالسواد (كانوا يرتدون ألبسة سوداء، ويحملون السلاح جهاراً دون رادع)، وأُطلق عليهم تسمية "شبيحة التهريب"، وكانت لبنان مقصدهم، وبدون أي رادع ينقلون منها ما يريدون لأسواق الساحل السوري والمدن السورية.

كان أصحاب المناصب في المدينة من المحافظ لقادة الأفرع الأمنية، وقيادة الشرطة تتحاشى الاصطدام مع أقرباء حافظ الأسد من الشبيحة، وعصابات التهريب، وأذكر أثناء عملي كقائد سرب زوارق صاروخية في البحرية السورية، وأثناء مَهمّة تدريبية لي في البحر، وردتني برقية ومهمّة تطلب مني استطلاع هدف بحري، قرب جزيرة أرواد، فتوجّهت إلى المكان، فكان هناك قارب كبير مُعدّ للتهريب، قال ربانه إنه مُلك لفواز الأسد، وعندما أبلغت القيادة العسكرية عن الموقف طُلب مني ترك القارب ومغادرة المكان، وعدم تسجيل محضر ضبط بالحادثة، وبتلك الطريقة كانت تتمّ كّل عمليات التهريب برّاً وبحراً، و"على عينك يا تاجر".

مواجهات النظام مع سكان المدينة بدأت منذ عام 1980، مع المجازر التي ارتُكبت في مدينة حماة، فأراد نظام الأسد الأب إرضاخ المدينة، بعد افتعال جريمة على يد المخابرات السورية، عندما قتلت أحد رجال الدين العلويين المعروفين، فتحرّك مئات الشباب العلوي لداخل أحياء اللاذقية، وأذكر، ووفق مشاهداتي يومها أنّه بمجرّد وصولهم لمبنى جامعة تشرين في مدخل حيّ الصليبة، اصطدموا مع سكان هذا الحيّ المشهور بشجاعة رجاله الذين هاجموا مخفر حيّ القلعة، وحصلوا على كامل السلاح الموجود فيه، وواجهوا مسيرة العلويين، وقُتل حينها ابن حيّ الصليبة "نادر الحصري" الذي كان يحمل معولاً زراعياً "كريك" على زاوية المقهى الصيفي بحيّ الصليبة، وعلى إثر المواجهات القوية تفرّقت مسيرة العلويين، وغادروا شوارع اللاذقية، لكن وكانتقام لمقتل الشيخ العلوي، تمّ إطلاق النار على أحد أهم وجهاء اللاذقية، وهو صبحي جود الذي أُصيب بالشلل نتيجة الحادثة.

شكلت مواجهات اللاذقية نقطة فاصلة لدى النظام، عاد بشار الأسد ليعيش فصولها نفسها، مع انطلاقة الثورة السورية عام 2011، حيث كانت مدينة اللاذقية، وحي الصليبة بالتحديد أوّل مَن خرج بمظاهرات مؤيدة للثورة، ولما حصل بدمشق ودرعا.

عمل حافظ الأسد على عسكرة سكان الساحل، وجعل التطوّع بأجهزة الأمن والجيش، هو الملاذ الوحيد لسكان الساحل وخاصة العلويين، فمنع إقامة أي منشآت صناعية من معامل وسواها في الساحل السوري، وحتى عام 2000 لم تكن هناك منشآت، سوى معمل الكونسروة في جبلة، ومعمل الألمنيوم في اللاذقية، ومعمل الإسمنت في طرطوس، والغاية كانت تتمثّل بهدفين:الأول تغليب الصبغة العلوية على أجهزة الأمن والجيش السوري، والثاني نقل شباب الساحل (العلويين) للعاصمة دمشق، وجعل خدمتهم العسكرية، أو الأمنية بالعاصمة أو محيطها؛ لتشكيل الحزام الطائفي العلوي، حول مدينة دمشق التي استعصت أيضاً على نظام الأسد، بعد رفض سكانها التخلي عن عقاراتهم، أو بيعها للعلويين.

الساحل السوري اليوم، ومعه مدينة اللاذقية يعيش أوضاعاً كارثية في ظل تفشي قطعان الشبيحة، وعصابات الأسد من الدفاع الوطني، إضافة لكل أجهزة الأمن التي تخدم نظام الأسد، ومع ذلك تبقى مدينة اللاذقية شامخة بقدرات عائلاتها، وبشهامة أبنائها، وبإصرار شبابها على المواجهة، وعدم ترك الساحة للنظام للسيطرة على مدينتهم العزيزة على قلوبهم.

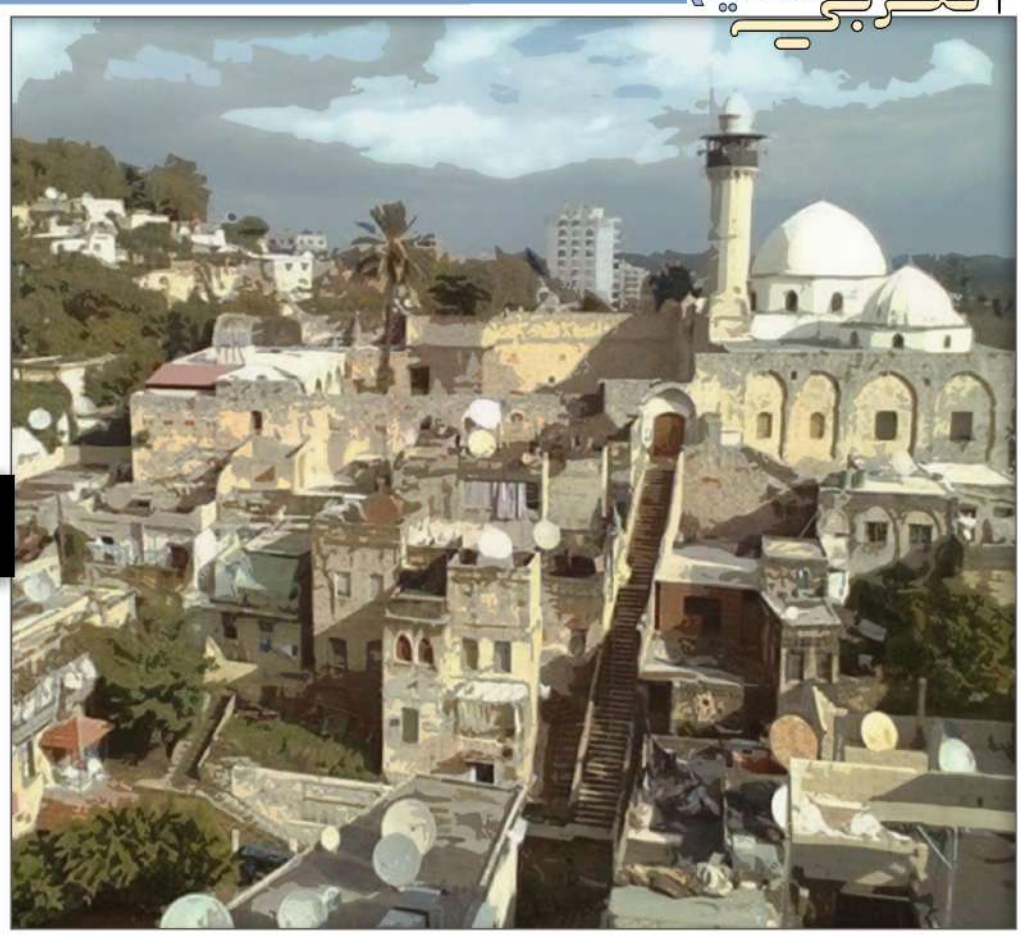

اللاذقية
حكايات أجيال يجب أن تُروى!

إيمان الجابر

يمكنك أن ترى البحر، وفي الوقت نفسه ترى (جامع المُغْرَبي – الذي بُني عام 1835م)، يبدو حبة لؤلؤ صعدت من البحر، أو نجمة مضيئة سقطت من السماء، وتربعت على عرش القلعة، تمنح الضوء لبابها الأخير المستند على قلوب أهل المدينة. الباب مازال صامداً وإن رحلت القلعة من مكانها، وبقي اسمها معلقاً فوق التلة.

عشت سنوات عمري الخمس الأولى، في الحي الذي يصفه حنا مينة في روايته المصابيح الزرقاء، أنه "يؤلف لوحة تحمل طابع الشرق القديم: أزقة ضيقة، ذات أبنية حجرية متقاربة، وأبواب صغيرة أشبه شيء بالكوى، تُفضي إلى باحات واسعة، في وسطها ماء، وزهر وشجر، ومن حوالي الباحة تقوم قاعات ومنتفعات، وعلى أطرافها، إلى أعلى، شرفات ذات تخاريم أثرية، تطل على بعضها، وتتداخل وتتقاطع على نحو غريب". إنه حي القلعة في اللاذقية.

حضوره المهيب يمنحه حصانة شيخ جليل مترفعاً عن معاركه القديمة، فاتحاً ذراعيه للجميع، دون تمييز بين ساكن قديم، ووافد جديد، بين بيت أثري، وبيت بُني على عجل، مستمداً هذا الحضور من أصالة عتيقة، وبساطة فائقة الدقة.

لا تحتاج إلى صور وثائقية، إلا للمساعدة في تأكيد أن ما تكتبه ليس من اختراع خيالك؛ كونه أصبح ماضياً بعيد المنال، ممّا يُضفي عليه سحراً وهمياً، إذاً، اجعل قلبك دليلك، واكتب. وإن خدعتك ذاكرتك وأخطأت في الجغرافيا والتاريخ، لفرط كثافتها في ذهنك، دع قلبك يتولى القيادة. ما يخرج من القلب قلبك تصدقه العيون، ذاكرة القلب، وإن أخطأت تبقى هي الأصدق، قد تُصدم إذا رأيت بيتك القديم اليوم، ذاك الذي كنت تظنه قصراً، وفي الواقع كان مجرد بيت عادي صغير مؤلف من غرفة، لها باب وحيد، على يمينه ممر صغير مفصول عن الغرفة بستارة قماشية، سيكون هو المطبخ، الحمام أيضاً، حيث يمكنك تحضير فنجان قهوتك، وأنت تعجن بيديك قطع الملابس بماء ساخن؛ كي تزيل الأوساخ عنها في (وعاء يبدو كمسبح صغير لاستحمام الأطفال)، يُسمّى (اللَّقَن).

أب وأم وأطفالهما الخمسة، أكبرهم 6 سنوات، وأصغرهم لم يتجاوز السنة. مع ذلك كان البيت كريماً وكافياً، يتسع بنوافذه المطلة على القلعة؛ ليصبح الحي كله بيتك.

غرفة النوم في الليل تصبح صالوناً أول الصباح، تستقبل فيها الضيوف، وإن ضاق المكان يمكنك فتح الباب الخارجي، ووضع كرسي آخر عند فسحة الدرجات الأخيرة المؤدية إلى السطح، فتستخدم بعض الدرجات كمقاعد للأولاد، فتبدو الصورة وكأنها مسرح وجمهور. السطح المشترك لأهل البناية باحة للعب، يمكنك أن ترى البحر، وفي الوقت نفسه ترى (جامع المُغْرَبي – الذي بُني عام 1835 م)، يبدو حبة لؤلؤ صعدت من البحر، أو نجمة مضيئة سقطت من السماء، وتربعت على عرش القلعة، تمنح الضوء لبابها الأخير المستند على قلوب أهل المدينة. الباب مازال صامداً، وإن رحلت القلعة من مكانها، وبقي اسمها معلقاً فوق التلة، تشير بقايا حجارتها إلى تلك التي نُهبت، وظهرت في أمكنة أخرى، من يسرق البحر، لا يتوانى عن سرقة التاريخ واللقمة من فمك.

أقراص الشنكليش الطرية، مصفوفة في الصواني، موزعة على أرض السطح، يمكنك تذوقها دون أن تعرف من هو الجار الذي حضّرها، وينتظر تجفيفها.

بيت نديمة الخياطة وأمها، تحت بيتنا، قد نحتاج أحياناً لاستعارة بصلة أو رغيف خبز، وفي الطابق الأرضي، صديق والدي في العمل والحياة، أبو عبدو الأشتر من سد الرستن، الذي يتحول بيته لمقهى كل يوم جمعة، يجتمع عنده الجيران لمتابعة مسلسل (الجرح القديم)، أول عمل فني أشاهده في حياتي. أذكر كلمات الفنان (أحمد عدّاس)، كان أطفال الحي يقلدونه، ويقولون: "أنا أخو نزهة".

كنت ألعب مع ابنتيه تفاحة وملك، كلما طردني الصبيان من مشاركتهم ألعابهم. جارتنا المصرية زوجة أبي صطيف اللاذقاني ابن الحي، قالت لأمي ذات يوم: (بنتك عيونها حلوين بس فمها كبير)! خجلت، صرت كلما رأيتها أزمّ فمي، وعندما تكون السهرة في بيتهم، لن يمانع أبي المتدين، الذي لا يقطع الصلاة، من رؤية كأس العرق فوق الطاولة، سيمارس حريته في أكل السمك المقلي مع كأس ماء.

ألعاب الصبيان، تحتاج لمهارات عالية، المنافسة والمتعة التي كانت تجعل الصبيان يصرخون بأعلى أصواتهم فرحاً أو غضباً، كانت تجذبني. يسمحون لي باللعب أحياناً، أقف بجانب أخي أراقبه، بنات الحارة يطلقون ضحكاتهم سخرية مني، إذا مررت بهم، يغنون: (حسن صبي، قومي العبي بالكلال)، لم أحب ألعاب البنات، تلك المملكة الغبية التي نرسمها على الأرض، ونقفز فوقها برجل واحدة، لدفع قطعة من البلاستيك (بقايا نعل حذاء)، باتجاه الهدف، سرعان ما يأخذني الملل منها؛ ليقودني إلى الخسارة.

مع الصبيان كنت أكتشف الزواريب، نصعد الأدراج العالية، نجمع أعقاب السجائر، ثم نصل لجامع المغربي، نستريح قليلاً، ثم نهبط سريعاً في سباق جميل.

من فوق القلعة، نرمي الأحجار الصغيرة.

***

كنت أمارس دور الأم، وأنا في الخامسة من عمري. أمسك يد أختي وأخي الأصغر، ونمضي في الطريق الذي يبدأ من سفح القلعة إلى البحر، يوصلنا إلى حديقة صغيرة قرب الميناء، نراقب المراكب الصغيرة (الفلوكات)، نعد أنفسنا برحلة جديدة؛ لنركبها برفقة أهلنا بربع ليرة، ونعود وأمي ما زالت تنظف هذا البيت النظيف. جارتنا الجسرية (نسبة لجسر الشغور)، زارت هذا البيت مع عدد من نساء الحي؛ لتقول لهم: "تعالوا اتفرجوا على بيت "المتقّنة"، تفتح خزانة أمي العروس، "كل شيء مكوي وفي مكانه"! أخبرتني أمي تلك القصة، يوم أخبرتها أنني أمثّل مع الفنان نضال سيجري في فيلم الترحال، وأنني أخته في الفيلم، قالت أمي: كانت هذه السيدة الجسرية أم نضال. إذاً كان نضال ابن حارتي، ربما لعبت معه، عندما كان برفقة أخي ذات يوم.

لطالما كانت تحنّ إلى بيتها في حي القلعة وكذلك نحن.

كانت اللاذقية أقرب لقلب أبي، من حلب، من القرية، اختارها مكاناً للعيش والعمل والاستقرار، ولكن المرض المبكر أجبره على مغادرتها، تزامناً مع هجرة أهله من الريف إلى المدينة سنة 1973.

***

كل الطرق كانت تؤدي إلى البحر لكن!

ثمة نظام غيّر روح المدينة إلى الأبد، صار هو الأبد بعد مرور سنوات عشر على تثبيت حكمه.

عروس البحر، جمالها في بساطتها، انسيابية طرقاتها، حاراتها المفتوحة على بعضها، زواريبها لا يضيع فيها أحد، كلما اعتقدت أنني ضعت، أجد نفسي قريبة من البحر، هو بوصلة المدينة وروحها، صوت الزمور المميز للسفن، يجعل الأطفال يقفزون فرحاً، يصعدون إلى الأسطحة؛ ليراقبوا وصولها البطيء.

حتى في بيت جدي المؤلف من طابقين، في حي الأزهري، كان البحر قريباً جداً، نراه كل صباح ومساء، عشر دقائق مشياً على الأقدام تصل إليه.

سألت أبي في الحلم: أين ينتهي البحر، أجاب: "إنه يبدأ من هنا ولن ينتهي. ذات يوم سيتمرد البحر على من اعتقله، وحبسه خلف أطماعه لامتلاكه، سيحطم كل الأسوار التي حجبته عن عيون أهله، وجعلت مجرد السباحة فيه، وصيد سمكه حلماً". ثم يضحك أبي، ويرمي بي في الماء، بلعت الكثير من الماء، بكيت وغضبت، وقلت له لا أحب البحر، كذبت عليه حينها، عشت عمري كله أحب البحر، وأخاف أن تغمرني المياه، إن تجاوزت طولي، أعود مسرعة إلى الشاطئ. نجحت طريقة أبي العسكرية مع أخي، وأصبح سباحاً ماهراً، أما أنا فلم أُحسنها.

***

ذات يوم سأعود إلى اللاذقية، أصبّح على حاراتها، أرمي السلام على مساجدها، كنائسها، مقدساتها، وألمس بروحي آثارها، أزور قبور الأحبة، ثم أرمي بكلّي إلى البحر، أغرق في سلام أبدي أخير، وأنا أغني: "يا محلا الفسحة يا عين، على موج البحر".

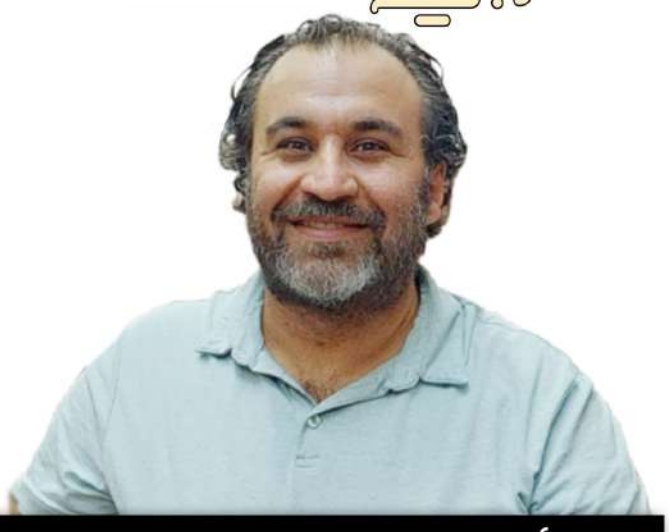

اللاذقية
بقايا مدَنيّة مهدمة

د. أحمد عسيلي

الناس ليسوا طائفيين في اللاذقية، بل لديهم رغبة كبيرة في الحفاظ على المدينة وحياتها المدنية، لكن للأسف النظام العام "السيستم" كله طائفي وتفريقي، ولا مجال للخروج عنه إلا بتعزيز المجتمع المدني

في عام 2000، حصلت على شهادة البكالوريا، وقررت التوجه إلى اللاذقية لدراسة الطب. كنت أحمل في ذهني صورة عن يوتوبيا المدينة كما تخيلتها، فولادتي كانت في جزيرة أرواد الصغيرة، ثم انتقلت إلى طرطوس في المرحلة الثانوية، و طرطوس كما هو معروف ليست بالمدينة، بل هي أشبه بريف كبير، وبالتالي لم أكن قد عشت سابقاً في جو المدينة، تلك البقعة التي تتيح لك متنفساً ثقافياً، مراكز أجنبية لدراسة اللغات، مراكز ثقافية تعرض مسرحيات وأمسيات أدبية، وربما يحالفني الحظ، وألتحق ببعض العمل السياسي المعارض أو النشاط الديني، (كنت وقتها متديناً لكن باعتدال).

وصلتها سنة 2000، وكلّي عطش لاكتشاف هذه المدينة الحلم، وكم سحرني وقتها شارع الأمريكان بأناقة الناس والمقاهي، زرت فيه مبنى المطرانية، الذي يؤجر غرفاً للطلاب (من كل الطوائف) بأسعار معقولة، ترددت على المركز الثقافي الفرنسي، (حيث بدأت الدورات الأولى في الفرنسية، التي ستتحول لاحقاً إلى لغة العمل وحياتي اليومية)، وكم سحرتني فكرة الكادون بخصوصيته الثقافية واللغوية، هذا الحي الأرمني الذي يشكل ربما بقايا الغيتوهات! فالكادون هي منطقة أرمنية خالصة، لكن لها مدخل شبيه بمدخل البيوت، ثم الصليبة، ذاك الحي المميز بلهجته الخاصة، التي عشقتها، وحاولت مراراً تقليدها، دون جدوى (يبدو أنها حكر على أهلها فقط).

ثم تعرفت على جوامعها وتياراتها الدينية، على مكتباتها (كنت أتردد كثيراً على مكتبة كردية خاصة، وأيضاً بالميرا، ومكتبة كانت تابعة لجماعة المفتي حسون، نسيت اسمها)، وبدأت صداقتي تتعمق شيئاً فشيئاً مع أصحاب المكتبات، الذين بدؤوا يثقون بي، ويمدونني ببعض الكتب المحظورة آنذاك.

في جامعتها، كان هناك حراك كردي لا بأس به، تعرفت فيها على الكثير من أصدقائي الكرد، عرفت أكثر عن القضية الكردية، عن ديريك، عن قامشلو، واستمعت لأغاني شيفان وغلستان،

وإن كان الانتماء الطائفي، لا يتعارض أبداً مع الانتماء للمدينة والبلد، بل يعززه في أحيان كثيرة، لكن الناس بحاجة إلى روابط أخرى؛ لتشبيك وتعقيد العلاقات في المدينة، فيصبح تماسك الناس أقوى، من خلال تعقد خيوط العلاقات في ما بينهم، فما تفرّقه الطائفة، قد تجمعه الرياضة، أو الانتماء الحزبي والإيديولوجي، أيضاً النقابات المهنية تلعب دوراً كبيراً في جمع ذوي المصالح المهنية، مما يجعل العلاقات أكثر تماسكاً بين البشر.

ومشكلة اللاذقية، والتي تظهر بعد عدة أشهر من السكن فيها، أن لا شيء يجمع مكوناتها، فالأرمن كما أسلفت يسكنون منطقة واحدة مغلقة، السُّنة يسكنون الصليبة، بل لهم لهجة مختلفة تماماً عن علويي الزراعة، هذا الخلاف امتدّ إلى الرياضة، فمباراة حطين وتشرين، هي لعبة بين فريقين، وطائفتين مختلفتين، (أدركت ذلك لاحقاً وبمصادفة كوميدية)، حتى النقابات والمناصب الحزبية والبلدية، تخضع لتوازن طائفي، بل حتى الفن والأغاني، فمصطفى يوزباشي كان وقتها

العربي القديم
صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي
وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

رئيس التحرير
محمد منصور

تدقيق لغوي
حسام الدين الفرا

إدارة سوشيال ميديا
فايز النعيمي

المستشار الفني
نبيل مراد

* الآراء الواردة في المجلة سواء من المقالات القديمة أو المقالات المكتوبة خصيصا لـ "العربي القديم" تعبر عن توجهات ورأي إدارة تحريرها
* إيميل التحرير: info@alarabialqadeem.com
* إيميل رئيس التحرير: mansoursham@gmail.com
* واتساب التحرير والإعلان: 00905368116000

■ تعليقا على إعلان دستور اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وسوريا وليبيا ■

* عن جريدة (الحياة) اللبنانية 1971/8/21 *

أردنا أن تكون سوريا ساحة واحدة:

اللاذقية في مواجهة الثورة

بقلم: زيد بن رغبان

معرفتي بمدينة اللاذقية محدودة، رغم وجود أقرباء لي، ولم تكن تتعدّى الإقامة فيها لأيام، كل عامين أو أكثر؛ بسبب عمل ما أو مناسبة اجتماعية أو واجب.

لكن مع العام 2011 ازداد اهتمامي بها لحساسية وضعها السياسي والطائفي؛ لأني من الناس الذين يعملون بمنطق المراقبة المباشرة، وليس عبر القيل والقال، والسوشيال ميديا، وغيرها ورغم أني لست شجاعاً، لكني أعشق الاحتكاك بمثل هذا الواقع عقلاً وقلباً، وتعددت الزيارات والتعاون مع شباب يحدوهم الأمل بالتغيير.

كنت أستطلع بهدوء، وغالباً اجتمعت مع جميع معارفي وأقاربي، ومنهم المثقف والمتعلم والجاهل، والمتلوّن بين بين، والواضح (سلباً أو إيجاباً)، إلى أن حصرتها بالمؤمنين بالثورة والتغيير، أطالبهم بالبقاء في اللاذقية، والفعل والأداء فيها، لكن عبثاً!

اليوم أسامحهم؛ لأنهم كانوا أكثر درايةً مني بوضع اللاذقية وريفها، وأنا كنت متفائلاً بشيء من الوهم.

واحدة من كبرى أخطائنا أننا أردنا أن تكون سوريا ساحة واحدة، بلا خصوصيات للمناطق والدساكر، وهي الحالة التي تتصف بها سوريا (تشابك الخصوصيات)، التي أجاد واستعجل النظام التعامل معها - قبل التقاط الأنفاس - غدراً وخديعة.

اللاذقية كانت الأكثر انقساماً وترددا بين المدن السورية الثائرة، أو في طريق الثورة، والمؤمنون بهذا الطريق كانوا قلة غير منظمة، صمتها قاهر، ورفضها بلا فعل مؤثر! قِلة غير منظمة، بمقابل قِلة منظمة تصرخ كيفما تشاء، وتفعل ما تريد بلا رادع، ولا قانون، ولا ضوابط إلا العبد المطيع لسيده. بين تلك القِلتين تتأرجح أكثرية مترددة خائفة ومخوّفة بعضها، مما قد تؤول إليه الأمور من خراب، وتسعى للنجاة بما تمتلك من شروط الحياة على دونيتها (على الأقل حياة). وبعضهم الأكثر من الأكثرية هو متجمع تراكمياً، من خلال اعوجاج التطور هو نكوص ليس أكثر، خائف على وضعه الطائفي؛ لعدم وجود فهم لديه عن الآخر، (أي آخر بالنسبة له صورة متخيلة)، بعد أن جنّد النظام لهذا التخويف كل ما يملك من أدوات، على رأسها رجال دين صنعهم لمثل هذا اليوم؛ ليكونوا (قرشاً أسود ليوم أبيض)، هم جزء من العتم ومن سواد الظلمة. (1)

في هذه النقطة بالذات لا ننسى الإشارات الأوربية والأمريكية والغربية عموماً، التي تتلخص بإعلان حرصها على الأقليات، وعدم المساس بها، (تذكروا لعل الذكرى تنفع). اللاذقية والساحل شائكان، بمثل هذه الأقليات من كل الأجناس والأطياف، (حسابات ليس للأكثرية مكان والمهم فيها لا وطن ليتغير).

توقفت تقريباً زياراتي للاذقية مع بدايات العام 2013، وبداية تشتت شمل الجميع بأصقاع الأرض، كما رغب النظام وحلفاؤه، وأصدقاء سوريا المُفترضون، تشتت بهدف التفتيت، وليس لإعادة التجميع، وبقيت لي ذكرى طريفة أليمة في الآن نفسه تختصر شيئاً مما رويت، ففي واحدة من غزوات استطلاعاتي للأوضاع، كنت في زيارة لصديق يقع منزله بالقرب من مبنى المحافظة، كانت جلسة هادئة على الشرفة، نتأمل الشارع والناس، وبالقرب من مبنى المحافظة، وقف بضعة مراهقين، أو أكبر قليلاً، ممن كانت أجهزة النظام تقطرهم بالشاحنات من الريف؛ ليخرجوا بمظاهرات مؤيدة، والهدوء كان يسود الشارع، إلى أن أذن موعد خروج الموظفين من دوائرهم، وازدادت حركة الناس، وفجأة يبدو أن واحداً من المتسكعين المراهقين دبّ فيه الحماس، وصاح: (بالروح بالدم نفديك يا بشار)، لكن لم يشاركه الهتاف أحد، فكرر الصياح للمرّة والثانية، وعلا صوته أكثر في الثالثة، لكن بلا نتيجة. كانت الناس تنظر إليه، وتتصنع عدم الانتباه، حتى أصدقائه الذين كان يقف معهم، أظن شعروا بشيء من الإحراج، لكن الفتى لم يستكن من شدّة حماسه، وبدأ بالصراخ على من حوله: (ولك ابعقوا.... ابعقوا)، أيضاً بلا نتيجة فكرر: (ولك ابعقوا يا إخواتين الش... ابعقوا.... يا عراعير...)، حتى عناصر الشرطة في محيط بناء المحافظة، وجدوا صعوبة بإخفاء ابتسامات السخرية؛ لأنها خطيرة بمثل هذه الحالة، إلى أن ذهب إليه أحدهم ولا أعرف ما قال له؛ لكي يخفف من وتيرة حماسه النضالي.

أما صديقي الطرطوسي المهندس، والشاعر الزجّال اللطيف صاحب الشرفة المتزوج في اللاذقية، فهو سوريٌ صالحَ نفسه طائفياً ووطنياً وأخلاقياً، كان يعمل وزوجته في اللاذقية، وعلمت في ما بعد كيف عومل وزوجته كمنبوذَين حتى من أقربائه، حين ذهب لزيارتهم في طرطوس، وأطلق النار على ساقه ابن عمّ له؛ لأن الأخير سمع بخروجه في مظاهرة تطالب بالحرية، وليحرمه السير بمثلها. هذا الصديق غادر إلى الشتات والتشتت، ونال على الأقل حياة بشيء من كرامة، رغم أن شرفته ما زالت تنتظره وتنتظرني.

أحد المتسكعين المراهقين دبّ فيه الحماس وصاح: (بالروح بالدم نفديك يا بشار)، لكن لم يشاركه الهتاف أحد، فكرر الصياح للمرّة الثانية، وعلا صوته أكثر في الثالثة، لكن بلا نتيجة. كانت الناس تنظر إليه، وتتصنع عدم الانتباه

هامش:

(1) لا أعني هنا شيوخ الطائفة العلوية فقط، وإنما غالبية رجال الدين، وعندما أقول صنيعة النظام خصوصاً العلويين؛ لأنه ومنذ سيطرة حافظ الأسد على مفاصل السلطة عمل على القضاء على طبقة الشيوخ التاريخيين للطائفة، ممن شكك في ولائهم له، وإنتاج طبقة جديدة منهم ترتبط به مباشرة.

طريقنا إلى اللاذقية

صخر بعث

أنا ابنُ "معرّة النعمان" وابنُ" أبي العلاء المعرّي" بالتأكيد، وإن لم يَنجب، فلقد قضيتُ معظم طفولتي فيها وجوار قبره في المركز الثقافي حيث كان جدّي "أحمد عربو" يودعني هناك منذ التاسعة صباحاً حتّى موعد الغذاء، الساعة الثانية تماماً. هكذا نشأت، أمّي من "المعرّة" وأمّها حمصية، أبي إدلبي خالص لكنّ أمّه حلبية، ويُقال في هذه الحالة "بندوق". نعم والله صحيح، بندوق سوري أنا، ليس بالمعنى الداج بل بالمعنى الدقيق، مثل نتاج تزاوج عصفورين مختلفين كالكناري والحسّون، نتاج تزاوج السوريين أنا، وهذه ميزة ممتازة، حتّى أنّ أصول أمّي "كردية" كما أخبرني جدّي، وأمّا أبي فلقد كان "رسّاما يعربياً" وكان يحبّ "اللاذقية" جدّاً، ولا يمكن أن تمرّ سنة خلال الإجازة التي كنّا نقضيها في "ذلك الوطن الجميل" منذ كنّا نعيش في السعودية دون أن نذهب للاصطياف في "اللاذقية"، لا يمكن!.

"اللاذقية" منفذنا الغربي المباشر نحن "الدالبة" وغيرنا بالطبع من السوريين إلى البحر، شرق البحر المتوسّط القديم العتيد، البحر الحائر بلا جوائز على أعلى تقييمات المشاركة، تركيا، اليونان، إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، فلسطين، لبنان، و"اللاذقية السورية"!.

الهوا بحري يقول "أيمن"، نحقّق فوراً هذه الأمنية ونغرّب، بسيطة جدّاً، إدلب، المسطومة، أريحا، بسنقول، فريكة، جسر الشغور، بداما، البهلولية. فاللاذقية بعد منطقتها الصناعية نصل وخلصت! 132كلم، ساعتان بالضبط، لأنّ الطريق جبليّ وباتّجاهين، وهذا الطريق لعَمري، هو أجمل طريق في "سوريا" كلّها، الطريق الواصل بين "إدلب" و"اللاذقية"، من البحر الأخضر إلى البحر الأزرق، هكذا كنتُ أقول لأيمن بعد أن نغادر من الزيتون إلى الماء، آهٍ آه يا جدّي يا أبا العلاء، الطريق الأجمل في "سوريا"، الطريق المقطوع الممنوع!.

البارحة على "مجموعتنا" نحن أصحاب الأدب والفنّ كما صنّفنا المصنّف محترماً ولطيفاً ومهذّباً "محمّد منصور"، أعجبتني مقولة لأحد السادة من أهل المجموعة، اقترحَ فيها أن نكتب بشكل ما عن سيرنا الذاتية كي نبقى على صفحات الذكرى ونؤرّخ لسوريا، وكم أعجبتني الفكرة وكم أحببتها لسببين: الأوّل أنّي لستُ مشهوراً ولا معروفاً على صعيد الأدب بل على صعيد قلّته، والثاني أنّني أحبّ الحديث عن حياتي والله للفائدة، الفائدة لأهلي السوريين، وأراعي عند الحديث الكذب، هل سمعتم أحداً قال قبلاً: أنا ابن "أبي العلاء المعرّي"؟.

زار "اللاذقية" جدّي "أبو العلاء" في طريقه إلى "طرابلس" كما تقول الروايات، وفي مقالات الرأي لا ينبغي الاستناد إلى إشارات مرجعية كما يقول الإعلاميون، وبين "المعرّة" و"اللاذقية" محبّة قديمة ما فرط عقدها سوى "ذلك النظام"، وأقول "ذلك" لأنّه انقضى ومضى، وستعود غصباً عن أمّه الأواصر.

اللاذقية من "كنسبّا" إلى "صلنفة" إلى "مشقيتا" إلى "رأس البسيط"، إلى الغابات والبحر والبرتقال والنهر، والزيزفون والزهر، والناس الناس الطيبيين بلهجتهم المحبّبة ولطفهم الجميل، لا يمكن أن ينفرط عقد محبّتها ومحبّتهم أبداً، لكنّما الصبر الصبر، وسينتهي لابدّ لاريب ولا مناص كلّ هذا الضجيج، وردّاً على جدّي الأكبر "أبو العلاء" الذي قال:

في اللاذقية ضجّةٌ ما بينَ أحمدَ والمسيحْ
ذا بناقوسٍ يدقّ، وذا بمأذنةٍ يصيحْ
كلٌّ يعظّمَ دينَه، يا ليتَ شعري ما الصحيحْ؟

الصحيح يا جدّي العظيم هو هذه الثورة العظيمة، وأنا ابن اللاذقية أيضاً كما ابن إدلب والمعرّة وابن كلّ حبّة رمل سوري.

اللاذقية وفواز الأسد
نكبة مدينة

عبد السلام حاج بكري

أقام فواز الأسد إمبراطورية تشبيح تقتل وتختطف، وتقطع الطرقات وتسرق، وإضافة لعمليات تهريب الدخان والمواد الكهربائية والمنزلية من لبنان فقد أدخل الأدوية مجهولة المصدر ومنتهية الصلاحية

صرتُ مع شقيقي الأكبر اثنين من أسرتي في المرحلة الإعدادية في العام 1981 مع شقيقين لنا في الثانوية، كانت مدرستنا في جبل الأكراد بريف اللاذقية، تبعد مسافة نصف ساعة، فيما كان شقيقاي يسيران ساعة ونصف؛ ليصلا إلى الثانوية في كنسبا، وكانت الوحيدة في الناحية، يسيران في غابات كثيفة، يتخللها وادٍ شديد الخطورة شتاء، يعانيان البرد والأمطار والثلوج، والحرّ صيفاً؛ لذلك استأجر والدنا منزلاً في اللاذقية لمتابعة الدراسة هناك، استدان الكثير؛ ليوفر علينا الإرهاق.

كان طبيعيّاً أن يختار والدنا السكنى في حيّ الصليبة المعروف بكراهية قاطنيه لحكم الأسد الأب، وهو المعارض القديم لحكم البعث، ومن ثم حكم الأسد. كان والدي ناشطاً في حزب اشتراكي محظور، وعانى الملاحقة الأمنية، منذ عام1963 ، نام ليالي كثيرة في الكهوف، وعند الأصدقاء والأقارب، وعندما تتراجع حدّة ملاحقته، يتابع نشاطه الحزبي، واختار حيّ الصليبة للسكن المؤقت؛ لاعتقاده بأنه سيكون أكثر أماناً له.

بعد أيام من وصولنا للمدينة، وفي طريق عودتي من المدرسة شاهدت حشداً يسوده هرج وصراخ، دفعني الفضول لاستطلاع الأمر، ومما عرفته من المتجمهرين أن شبّاناً من الحيّ ضربوا فواز الأسد، ومرافقته لتحرّشه بفتاة، كانت تعبر الشارع عند مرورهم فيه، راح رجل يصرخ: اهربوا قبل أن يعود الشبّيحة والأمن. تفرّق الجمع، وعدت للمنزل، وأنا أتساءل، ما معنى كلمة الشبيحة التي سمعتها للتوّ؟

سيطر فواز ميدانياً على المدينة، وتحكّم بكل مفاصلها الاقتصادية، عبر فرض الأتاوات بقوة السلاح، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وخلق اقتصاداً موازياً قائماً على التهريب، تزامن مع بدء تفاعل الأزمة الاقتصادية على النظام، عقب توقف الدعم المالي الخليجي؛ لاتخاذ النظام موقفاً مؤيداً لثورة الخميني، وبعد ذلك الحصار الاقتصادي الغربي الذي جاء نتيجة لانكشاف دور الأسد في أكثر من عملية إرهابية في أوروبا، وبذلك رسخ مفهوم التشبيح في ذاكرة السوريين.

بهذا أكمل فواز ما بدأه والده جميل الأسد شقيق الرئيس بالاستيلاء على المعابر الحدودية مع تركيا ومرفأ اللاذقية، واستكملت حلقة الهيمنة على النشاطات الاقتصادية، بتولي قريبهم كمال الأسد رئاسة غرفة التجارة في اللاذقية، فآل إليهم كل نشاط اقتصادي شرعي أو غير قانوني.

نشاطات إجرامية لا حصر لها

لكن الأسوأ من التحكم بلقمة البشر، كان العبث بحياتهم وأمنهم، فقد جمع فواز حوله عشرات الشباب من غير المتعلمين، والعاطلين عن العمل من أرياف جبلة والقرداحة، وأقام إمبراطورية تشبيح تقتل وتختطف، وتقطع الطرقات وتسرق، وإضافة لعمليات تهريب الدخان، والمواد الكهربائية والمنزلية من لبنان، فقد أدخل بالطريقة ذاتها الأدوية مجهولة المصدر، ومنتهية الصلاحية أحياناً، ووزعها في كل سورية برعاية النظام وقواته الأمنية.

نوّع نشاطاته الإجرامية، فدخل مجال تهريب السلاح والمخدرات التي افتتح لها مخازن في القرداحة، وحي الشيخ ضاهر في اللاذقية تبيع علانيّة، واتجه لتجارة الفحم لارتفاع أرباحها، فراح رجاله يشعلون الحرائق في غابات الساحل، لا سيما جبلي الأكراد والتركمان، ليتولى لاحقاً تحويل حطب أشجارها إلى فحم سيطر على سوقه منفرداً. ولم يتوقف ولعه بالسيطرة عند كل هذا، فأضاف إليه التحكم بكرة القدم في المدينة، وهي آخر متنفس لأبنائها، بعدما استملك أخوته، وأبناء عمه رفعت شواطئ المدينة، وحرموا سكانها مجانية ماء البحر، فعيّن نفسه رئيساً فخرياً لنادي تشرين، وأدخل إليه شباناً بصفة لاعبين من أرياف القرداحة وجبلة، لا يعرفون من كرة القدم سوى اللبط، وتحت التهديد فرض على حكام مباريات النادي محاباته لتحقيق الفوز.

دخوله على خط كرة القدم لم يكن عبثياً، بل مخططاً له، نتج عنه انقسام واضح بين سكان المدينة والريف طائفياً، فبعدما كان تشرين مع حطين ناديَين متنافسَين بشرف، ويمثلان أبناء المدينة، حوّل تشرين إلى نادٍ تشبيحي، يفوز على حطين بقوة سلاح فواز الأسد الذي استخدمه، داخل الملعب تهديداً ووعيداً عام 1988 ، وأعقب ذلك اشتباكات استمرت أياماً بين أنصار الناديَين، لكن الحساسية بينهما استمرت حتى اليوم.

كان طبيعيّاً أن يختار والدنا السكنى في حيّ الصليبة المعروف بكراهية قاطنيه لحكم الأسد الأب، وهو المعارض القديم لحكم البعث، ومن ثم حكم الأسد

فواز الأسد (1960- 2015)

تكاثر الشبيحة من آل الأسد، فظهر هائل، وهارون، وهلال، وشبان آخرون، دشّن كل منهم مشروعه التشبيحي، للعمل إلى جانب معلمهم الأكبر بالهيمنة والتسلط، وكل الأعمال اللاشرعية، ومع مرور الوقت نشبت خلافات بين هذه المجموعات، على توزّع الحصص والجغرافيا التهريبية، وصلت حدّ الاشتباك المباشر بالسلاح، مما دفع باسل حافظ الأسد للتدخل أكثر من مرة، لضبط إيقاع الإجرام؛ كي لا يسقط أحد من القائمين عليه بنيران صديقة. ولأسباب اقتصادية عديدة، ومنها شرعنة التشبيح والتهريب أصدر حافظ الأسد قانون الاستثمار رقم 10 في العام 1991، افتُتحت بموجبه المناطق الحرة في عديد من المدن السورية، سيطر عليها، وتحكم بتجارتها آل الأسد، ومنهم بعض هؤلاء الشبيحة مع بعض أقاربهم من آل مخلوف.

كان فواز الذي لا يحمل سوى شهادة إعدادية فقط، قد أعلن حصوله على شهادة الحقوق، وبدأ بممارسة المحاماة في مدينة اللاذقية، وافتتح مكتباً فخماً في أهم أحيائها، ولاحقاً دوّن قبل اسمه حرف الدّال ليغدو "الدكتور".

لم يوقف عمل مجموعاته التشبيحية، لكنه توقف عن مرافقتها، واقتصر على الإشراف عليها. كسب "الدكتور" كل الدعاوى التي توكّل بها، رغم أنه لم يدخل قاعات المحاكم مطلقاً، اقتصرت قضاياه على الجرائم المثبتة التي تودي بمرتكبيها إلى المؤبد أو الإعدام، أو الجرائم الاقتصادية بأرقام كبيرة. كان الرجل يكتفي بالاتصال بالقاضي صاحب العلاقة، فيحسم براءة موكله دون جلسة محاكمة، أو استماع لمحامي الضحيّة وشهوده، ولم يكن لأحد أن يتجرّأ على الاعتراض؛ لأن مصيره سيكون التغييب، أو الشّحط في شوارع المدينة، وقد شاهد سكانها رجاله يفعلونها بفلاح من قرية في منطقة الحفّة، رفض أن يعترف بأنه أحرق الغابة المجاورة لأرضه، كما طلب منه الدكتور، وأصرّ على أنه شاهد بعينيه شبيحته يشعلونها.

يمكن كتابة الكثير عن تشبيح فواز الأسد، وممارساته الفظيعة مع أبناء اللاذقية، لكن سأتوقف هنا؛ لأورد بعضاً من سيرته العطرة، مما شاهدته بنفسي أو وثقت منه.

في كرة القدم "كنت شاهداً"

كان نادي تشرين خاسراً بهدف أمام منافسه التقليدي في المدينة حطين، في مباراة ذهاب الدوري عام 1986، وشارفت المباراة على نهايتها، ولم يستطع تشرين إدراك التعادل، ومن هجمة له، رفع حكم الراية رايته معلناً عن تسلل، فصرخ به فواز، وكان قد نزل إلى الملعب، ووقف بجانب الحَكم: "نزّلها ولاك"، فأنزلها في الحال؛ ليدرك رائد جورية التعادل لتشرين، رغم أن لاعبي حطين كانوا قد توقفوا عن الجري، وكالعادة أعقب المباراة اشتباكات بين جماهير الناديَين، اعتدى فيها عناصر حفظ النظام على مُشجّعي حطين.

في أداء الواجب

في العام 1990 توسّل إليه تاجر جملة المساعدة في استعادة دَين له، مقداره 250 ألف ليرة من رجل اشترى بضاعة لم يدفع ثمنها، فطلب منه العودة بعد أسبوع، وفي اليوم المحدد حضر التاجر سائلاً عن ماله، فاستقبله فواز بقهقهة صاخبة، "واقرود.. لكن شو.. جبتن". شكره التاجر، وقال له خذ خمسين ألفاً منها مكافأة لك، فأجابه فواز "والإمامو علي ما حزرت، هنت اللي بدك تدفع خمسين، كلفتنا العملية 300 ألف". دفعها الرجل شاكراً للدكتور مساعدته.

في القانون

اتصل بقاضٍ، حَكَمَ على متّهم من إحدى مجموعات التشبيح بالإعدام؛ لقتله عنصرَين من الأمن، أوقفاه لتفتيش سيارته، وطلب منه إعادة المحاكمة، وتبرئة المتّهم، رفض القاضي، وهو من قرية بريف إدلب طلبه، وفي اليوم التالي تماماً، تم نقله إلى القامشلي، وأعيدت المحاكمة، وغرّد المجرم طليقاً.

في الأخلاق

هذا أول ما شهدته على أعمال فواز، وكان عند وصولي إلى اللاذقية عام 1981. كان يعبر حيّ الصليبة بسيارته السوداء، مع صديقه الشبيح المشهور قحطان رجب، ترافقه سيارة أخرى فيها خمسة شبيحة مسلحون، عندما شاهد فتاة أعجبته، فتوقف طالباً منها أن تركب معه في السيارة، وعندما رفضت حاول مع قحطان جرّها للسيارة، وهنا نال من الضرب ما لم يعرفه سابقاً أو لاحقاً من شبّان كانوا في المكان، ولم يتمكن من المغادرة إلا عندما أطلق مرافقته نيران بنادقهم، ومن هنا جاء حقده على سكان حيّ الصليبة، ولم يتجرأ بعدها على تكرار هذا العمل فيه مرة أخرى.

الملف

اللاذقية والأبجدية وأوغاريت

نص وعدسة: سعد فنصة

يمكن وصف اللاذقية ومحيطها وطبيعتها بأجمل حواضر التاريخ الإنساني على الإطلاق، وتتشابه هذه المدينة في طبيعتها مع مدن الساحل السوري، من الإسكندرونة شمالاً، مروراً بجبيل، وصيدا، وصور، وعكّا، ويافا على السواحل اللبنانية والفلسطينية جنوباً، من حيث تقاليد البحر الفينيقية، ولكن لاذقية البحر، من خلال المكتشفات الأثرية لعبت أدواراً عميقة الدلالات الإنسانية في نشأة الحضارة المُبكر، وقد يحار المرء، أمام هذا الغنى الأثري الكبير الذي احتضنته هذه المدينة، في ريفها القريب والبعيد.

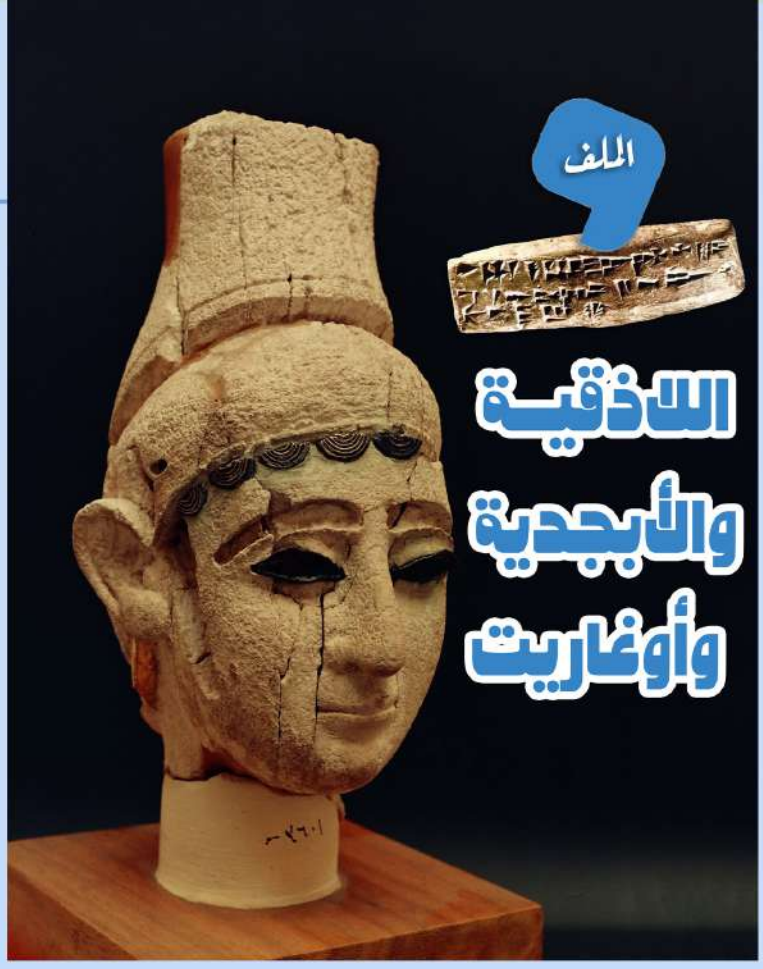

بالقرب من اللاذقية، وفي محيط سرير النهر الكبير الشمالي حوالي 10 كم، عن مركز المدينة، وفي موقع "ست مرخو"، عُثر على مخلّفات إنسانية، دلّت على سكن بدائي يعود إلى العصر الجيولوجي الرابع، إذ عُثر في هذا الموقع على فأس حجرية، نحتها إنسان "الهوموأركتوس" (الإنسان المنتصب القامة والشبيه بالإنسان)، وهو أوّل إنسان خرج من القارة الإفريقية، كما يعتقد الآثاريون، صوب القارة الآسيوية، ويُعَدّ هذا الموقع ومواقع أخرى مجاورة، أحد أعظم الكشوفات الأثرية في العالم، وأقدم المواقع في عصور ما قبل التاريخ في آسيا وأوربا، إذ يعود هذا الموقع بالتحليل الأثري الدقيق إلى ما قبل مليون عام من الآن، ويُثبت على أن السكن الإنساني، في هذه البقعة الجغرافية، استمرّ بلا انقطاع، وشهد تطوّراً، لأكثر من نوع في سلّم تطوّر السلالات البشرية، يمكن التعرف على تطوّرها، من خلال تطوّر تقنياتها الصوّانية، وطرائق شحذها، واستخداماتها في الصيد البرّي، أو قطع الأشجار، ومواجهة الحيوانات البرّية المتوحّشة.

إن أصل اسم اللاذقية، كما ورد في الحوليات التاريخية، يعود إلى اسم مؤسسها، على نمط المدن الهلينستية، في كل الشرق، عندما تُوفي فاتح العالم القديم الإسكندر الأكبر في بابل عام 323 قبل الميلاد، ورث قادته العسكريون، "بطليموس" مصر، و"سلوقس نيكاتور" بلاد الشام، أو سوريا الطبيعية باسمها القديم الحالي، فنظّم مدنها القديمة على أنماط الهندسة الإغريقية، من شارع مستقيم، وآغورا، ومسرح، وأسواق، ومعابد جديدة للآلهة المُحدَثة، ويبدو أن سلوقس نيكاتور كان محبّاً، لتخليد أسماء أسرته، فأسّس المدن الأربع الشهيرة: (سلوقيا على نهر دجلة باسمه، وأنطاكية باسم أبيه أنطوخيوس، وأفاميا على اسم زوجته أباميا، وكانت لوديسيا من نصيب اسم أمّه التي كان يحبّها حبّاً جمّاً، ومنها اشتُقّ اسمها الحالي)، ويُعتقد أن اسمها الفينيقي القديم، والذي ورد في المصادر القديمة، باسم "راميتا"، ويحتمل أن تكون إحدى ضواحي العاصمة القديمة للحضارة المُكتشَفة، في أواخر عشرينات القرن الماضي، والشهيرة باسم "أوغاريت"، أو رأس شمرا.

أوغاريت الكنز المعرفي

في العام 2004، وبمناسبة مرور خمسة وسبعين عاماً على اكتشاف مملكة "أوغاريت"، كان لي شرف المساهمة في إصدار مجلد ضخم، صدر بالفرنسية مع ملحقاته البحثية عن النصوص الأوغاريتية -لا أعتقد أنه قد تُرجم إلى العربية حتى اليوم- لذلك قمت بترجمة بعض أحدث أبحاثه، خصوصاً أن الأبحاث الميدانية، والحفريات الأثرية للبعثة الفرنسية التي يديرها البروفسور"إيف كالفيه"، قد توقّفت منذ العام 2011، وكنت على صلة بالتعاون في التوثيق الأثري مع السيد "كالفيه"، والمهندس المعماري، والذي كان عضواً في بعثة التنقيب عن "أوغاريت" منذ العام 1967، "أوليفييه كالو"، والأستاذة بجامعة ليون "جنيفيف كاليانو".

هل أوغاريت هي اللاذقية؟

تتوضّع أوغاريت على بعد 11 كم من شمال اللاذقية، وتحتّل مساحة، تُقدر ب27 هكتاراً، لم تكشف التنقيبات إلى اليوم، سوى عن سدس مساحة المدينة القديمة، وقد بيّنت التحريات الأثرية عن بقايا سكن، منذ العصر الحجري الحديث (الألف الثامنة قبل الميلاد-عصر نشوء الزراعة)، إلا أن بنيانها الحالي وعمارتها الحجرية، يعود إلى عصر ازدهار مملكة "أوغاريت"، وشهرتها بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد، (نهايات العصر البرونزي)، قبل أن يتمّ تدميرها من قبل ما سُمّي بشعوب البحر حوالي العام 1185 قبل الميلاد، وهم محاربون غزاة مدمّرون للحضارات على كل السواحل السورية وقبرص، وحتى مصر جنوباً، ومازال ما أُطلق عليهم شعوب مجهولة الهوية حتى اليوم، بمعلومات غير مؤكّدة، بأنهم اتحاد من القراصنة، نشأت في عدّة أماكن من غرب آسيا الصغرى وبحر إيجة، وبعض الجزر المنعزلة في الأرخبيل اليوناني، وجنوب أوربا، كذلك دمّروا المرافق المحيطة بأوغاريت، كموقع "مينة البيضا"، وهو الميناء التجاري الرئيس للمملكة، والمعروف باسم "رأس ابن هاني"، والذي عمل بالتنقيب فيه منذ العام 1975 أستاذي البروفسور العلامة عدنان البني، وجاك لاغارس، وزوجته إليزابيث، وتمّ الكشف فيه عن القصر الصيفي لملوك أوغاريت، إضافة إلى الكشف المثير عام 1982، لشأن يتصل بالتاريخ الاقتصادي للمملكة، فإضافة إلى الرقيمات الفخارية والمدوّنات التي كشفت أهمية هذا الموقع الفريد، اكتشفت منشأة صناعية لصبّ سبائك البرونز والنحاس، والمُعدّ أساساً لأغراض التجارة والتصدير، والذي كان يُختَم بخاتم رسمي ملكي؛ لكي يُصدَّر إلى كل أرجاء العالم القديم، وقد وُجدت السبائك التي كان يبحر بها الأوغاريتيون القدماء، في كل من كريت، وصقلية، وقبرص، واليونان، والأناضول، ومصر كهدايا ثمينة، كانت تُقدَّم لملوك مصر والأناضول.

إضافة إلى الموقع السابق، تمّ الكشف عن عدد من التجمّعات المدينية القريبة من رأس البسيط، وتل سوكاس، وتل تويني في جبلة، وهي مواقع لم تكتمل كشوفاتها الأثرية، ولا أبحاثها بعد، لرسم خريطة متكاملة للمملكة الأوغاريتية، بحدودها الحضارية أو الجغرافية.

اكتشاف المملكة

يعود اكتشاف مملكة أوغاريت إلى فلاح محلّي، كان يحرث أرضه، بالقرب من خليج "مينة البيضا" عام 1928، اصطدم محراثه بألواح حجرية لمقبرة أثرية، تعود إلى ختام عصر البرونز، كشفت بدورها عن ألواح كتابية غير معروفة سابقاً بلغتها، سرعان ما بادرت السلطة الأثرية الفرنسية آنذاك، إلى تكليف رئيس قسم الآثار الشرقية في متحف اللوفر بباريس الباحث "كلود شيفر" 1898-1982، بإدارة أعمال التنقيب في الموقع المُكتشَف، بدءاً من العام 1929 بتمويل من وزارة الخارجية الفرنسية.

وخلال ثلاثة أرباع القرن، كشفت هذه المملكة عن ثروة من الكنوز الأثرية والمعارف الإنسانية، بعد اكتشاف أرشيف المكتبة الوثائقية في القصر الملكي.

وتقول "جنيفيف كاليانو": إن ما قدمه أرشيف المكتبة مساهمة، لا تُقدَّر بثمن، في معرفة السياسة الدولية في ذلك الوقت، وحال موارد أوغاريت والموقع الإستراتيجي للمملكة على مفترق طرق البحر الأبيض المتوسط، مروراً بالداخل السوري إلى ما وراء بلاد ما بين النهرين، شمالاً حتى بلاد الأناضول، ما أثار برأيها جشع القوى المتنافسة؛ من أجل السيطرة على بلاد الشام، إذ تضمّنت الوثائق المكتشَفة معاهدة الولاء للملك الحثّي، مقابل جزية كبيرة، تدفعها مملكة أوغاريت؛ لضمان حماية حدود المملكة من غزو الممالك المجاورة: (آمورو- سيانو-موكيش)، مستفيدة من السلام المُبرَم بين الحثيين في الشمال، ورمسيس الثاني في مصر.

كذلك اقتربت أوغاريت من مصر القوية، وحافظت على علاقاتها مع المدن التابعة، كما في بيروت، وجبيل، وصيدا، وصور.

لقد أسّست مملكة أوغاريت سياساتها بناء على مصالحها السياسية، والاقتصادية، وكانت ثرواتها ترد من النشاط التجاري المكثّف، إذ تغطّي شبكتها التجارية مساحة شاسعة من البحر الأبيض المتوسط والعالم القديم.

تتوضّع أوغاريت على بعد 11 كم من شمال اللاذقية، وتحتّل مساحة، تُقدر ب27 هكتاراً، لم تكشف التنقيبات إلى اليوم، سوى عن سدس مساحة المدينة القديمة

تمّ الكشف في رأس ابن هانئ عن القصر الصيفي لملوك أوغاريت، إضافة إلى الكشف المثير عام 1982، لشأن يتصل بالتاريخ الاقتصادي للمملكة، حيث اكتشفت منشأة صناعية، لصبّ سبائك البرونز والنحاس، والمُعدّ لأغراض التجارة والتصدير

اقتربت أوغاريت من مصر القوية، وحافظت على علاقاتها مع المدن التابعة، كما في بيروت، وجبيل، وصيدا، وصور.

الأبجدية الأولى من أوغاريت

لقد كانت "أوغاريت" بمنزلة (رأس شركة عالمية) للاستيراد والتصدير، وفي الوقت ذاته كانت مركز إنتاج نشط للغاية، فقد صدّرت فائضها الزراعي، وأنتج حرفيّوها سلعاً فاخرة، كانت تُصدَّر إلى كل مدن البحر الأبيض المتوسط والمُصنَّعة من:

المعادن الثقيلة، وصياغة الذهب، ونحت العاج، والزجاج المتقن، والنجارة الخشبية، والنسيج، وكان بعض موادها الأولية يُستورَد من مناطق بعيدة جداً، إذ تكشف الأدوات المُصنّعة عن ثراء وتنوع الإنتاج الحرفي، وتقدّم النصوص والمدوّنات الكتابية معلومات موثّقة عن صناعات متطوّرة للنسيج، والأثاث، والنبيذ، والزيت، إضافة إلى تربية المواشي والخيول، وكان للحرفيين تنظيم شامل للمشاغل، والسكن في أحياء المدينة، وكان التجار الأثرياء يتقاسمون السوق الدولية بين الممالك القديمة، كشفت عنها المزهريات الخزفية الثمينة من "ميسينا"، وأنياب الأفيال المستورَدة من أفريقيا وآسيا، والنحاس من قبرص، بينما كانت تُصدّر شحنات الأسماك إلى "كركميش"، والصوف الملوّن والأصباغ إلى "إيمار".

لقد تبيّنَ دور ملوك "أوغاريت"، من خلال النصوص المترجَمة عن اللغة الأوغاريتية، أن رعاة "أوغاريت" كانوا يديرون شؤون المملكة بتنظيم مذهل ومبكر، ويبدو جلياً بأن أدوارهم كانت عالمية، بمقاييس ذلك الزمان في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

إذ كان ملك "أوغاريت" منذوراً للتعامل مع الدول العظمى في شؤون السياسة، ويعقد الزيجات الملكية والدبلوماسية، ويقود الجيش المكوّن من فرق من المشاة والرماة، مع معدّاتهم الحربية الثقيلة،

"إيل" كبير أرباب المجمع الإلهي

كانت "أوغاريت" بمنزلة (رأس شركة عالمية) للاستيراد والتصدير، وفي الوقت ذاته كانت مركز إنتاج نشط للغاية

أدار رعاة "أوغاريت" شؤون المملكة بتنظيم مذهل ومبكر، ويبدو جلياً بأن أدوارهم كانت عالمية، بمقاييس ذلك الزمان إذ كان ملك أوغاريت منذوراً للتعامل مع الدول العظمى في شؤون السياسة، ويعقد الزيجات الملكية والدبلوماسية ويقود الجيش

كشف ثراء وهندسة، وجمال قصر أوغاريت الذي شَهدت عليه القطع المكتشَفة بأجزاء منها، أنه كان ثرياً بفنونه المتطوّرة، شهيراً في العصور القديمة

1185والتي تجرّها الثيران، وعلى المستوى الإداري يتحكّم في توزع السكان، حسب التجمّعات الوظيفية أو المهنية، ويضمن العدالة والإنصاف في الشأن الاقتصادي في سائر الإقليم، ويقوم بمراقبة توزيع أو سحب المنتجات الزراعية بحسب الحاجة والتموين، أو التدخل في بيع السلع، وتنقسم المملكة إلى مناطق للحكم بواسطة (محافظين)، أو أمناء يمثّلون بالدرجة الأولى مصالح "أوغاريت" بين الممالك المجاورة، ويتضح من خلال النصوص المترجَمة، أن مُحافظي المدن، مارسوا السلطات القانونية والإدارية من قبل مجالس الحكماء أو الأعيان. لكن الملك وحده كان يُنظر إليه، قبل أيّ أحد، على أنه الوسيط بين رعاياه وعالم الآلهة، وبفضل العبادة الملكية، يحمي الحياة، ويضمن عمل الطبيعة، ويتعهّد بأسس الحياة وخصوبة المملكة، ويقيم في قصر مكوّن من إدارات ملكية وشقق سكنية، وحديقة ومعبد، ومبانٍ مُلحَقة.

لقد كشف ثراء وهندسة، وجمال قصر أوغاريت الذي شهدت عليه القطع المكتشَفة بأجزاء منها، أنه كان ثرياً بفنونه المتطوّرة، شهيراً في العصور القديمة.

العبادات والأساطير والمعارف

قدّمت "أوغاريت" معارف جديدة كلياً عن العبادات والأساطير، والتي ارتبطت، بقوة بحياة الأوغاريتيين، في البحر واليابسة، وتتدخّل الآلهة الأوغاريتية في كل شأن وزمان في حياة البشر، وتحكي قصائد دورة "بعل" المدوَّنة على الرقيمات الفخارية مغامراتهم ونوازعهم، و"بعل" هو كبير الآلهة، وحامي المملكة

تمثال الآلهة عشتار على سن فيل من العاج 1400 ق.م

بوابة القصر الملكي في أوغاريت

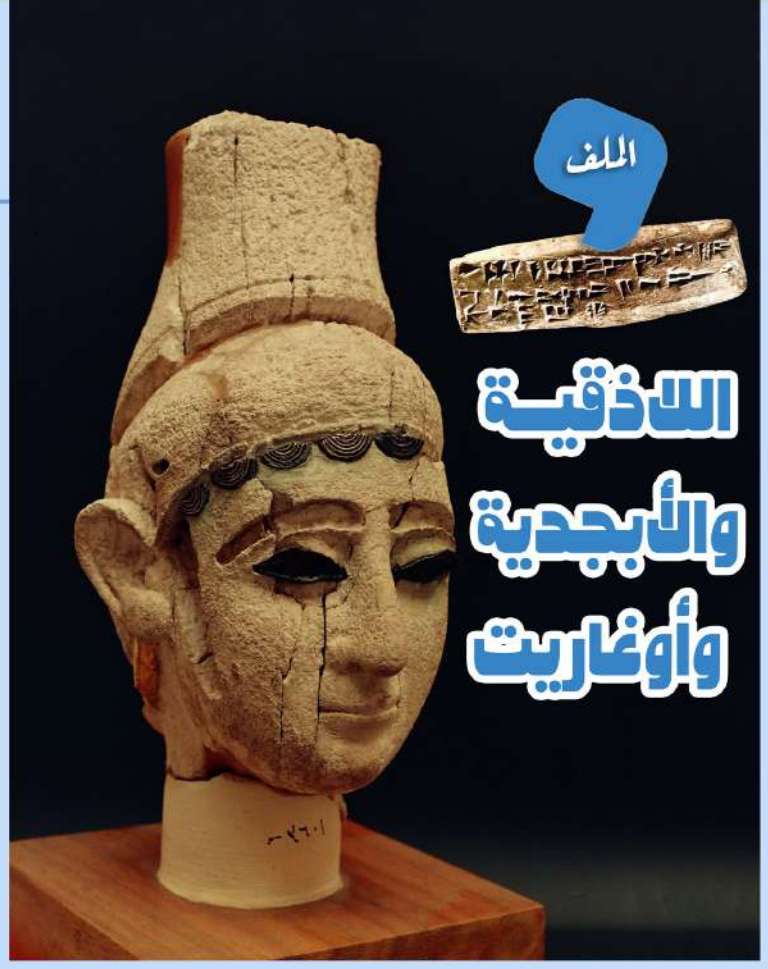

وضامن ازدهارها، والذي يأتي بالأمطار الغزيرة والصواعق كل عام، لتتفتح الأزهار، وتثمر الثمار، وتُجمع الغلال، من مقر إقامته على جبل "سافون"، (كما ورد بالنص الفرنسي والمقصود هو جبل صافون، أو الأقرع كما يُسمّى اليوم)، وهو يضمن أيضاً سلامة البحارة أمام الأنواء والمخاطر.

لقد ساهم هذا القصّ الشعبي الذي ارتبط بهموم ومخاوف الأوغاريتيين بالبيئة، في تعزيز الهوية الوطنية للمملكة، ومن خلال هذه الثقافة، قامت الحضارة الكنعانية التي رسمت أدبياتها الثرّة، ومقدساتها، الجزء الأكبر من جذور الديانات، وقصّة الخلق، وطرق العبادة في المعابد التي خُصّصت بوفرة للآلهة: "بعل"، و"إيل"، و"دجن" في مجتمع أسري زراعي، كما قدّم معلومات دينية عن الاحتفالات المتكرّرة كّل عام، والتضحيات الطقسية السنوية، للأغنام والثيران والطيور، والتي بدورها طوّرت الفكر الإنساني التجريدي تطوّراً هاماً، عند الكشف عن أقدم مدونة موسيقية اكتُشفت إلى اليوم، على شكل (نوتة) موسيقية، عُدَّت واحدة من أبرز مكتشفات القرن العشرين على الإطلاق، إذ تُعتبَر إرثاً موسيقياً عالمياً، اهتمّ بها كل علماء الموسيقى وباحثوها، وقاموا بتحليلها، وفك رموزها، وإعادة عزفها، حين تَبيَّن أن هذه المدوّنة كانت السلّم الموسيقي الأول، قبل أن يضعه عالم الرياضيات اليوناني "فيثاغورث" بأكثر من ألف عام.

كشفت المدوّنة الموسيقية أيضاً الأبعاد بين العلامات الموسيقية، وأسلوب ضبط الأوتار (الدوزنة)، إلى جانب العديد من الآلات الموسيقية التي كانت تعزف في المعابد، أو خلال الاحتفالات السنوية.

ولا يقارب هذا الاكتشاف أهمية، سوى الكشف عن أول أبجدية في العالم، حفظت اللغة الإنسانية، والمخزون الفكري الإنساني إلى اليوم،

تَبيَّن أن المدوّنة الموسيقية في أوغاريت كانت السلّم الموسيقي الأول، قبل أن يضعه اليوناني "فيثاغورث" بأكثر من ألف عام.

لا يقارب هذا الاكتشاف أهمية، سوى الكشف عن أول أبجدية في العالم، حفظت اللغة الإنسانية، والمخزون الفكري الإنساني إلى اليوم

إن الكتابة عن مملكة أوغاريت ومكتشفاتها، ومعاهداتها وعلومها وذخائرها الأدبية والشعرية بحاجة الى مساحة، لا تكفيها مجلدات

الإله إيل من أوغاريت برونز مطلي بطبقة من الذهب 1400 ق.م

أقدم مدونة موسيقية وضعت العلامات الموسيقية والتي تستعاد بالعزف لأول مرة من تاريخ الإنسانية

حتى دُعيت سوريا ببلد الأبجدية، حيث يُدرّس هذا الاكتشاف في كل مدارس العالم ومؤسساته التعليمية، باعتباره أحد أبرز إبداعات الفكر الإنساني، وأرقاها على الإطلاق، وقد وقف العالم الفرنسي "شارل فيرلو" عضو الأكاديمية الفرنسية للكتابات والآداب، وأحد مُفسري الأبجدية الأوغاريتية، في السابع عشر من شباط – فبراير عام 1950، أمام الجمعية الأكاديمية الفرنسية قائلاً: "إن على العالم المتحضّر أن يفخر بهذا الاكتشاف المثير، وإن الجنس البشري مدين به لعبقرية كتاب من فينيقيا - بلاد كنعان- السورية، وعلى العالم أن يفخر بهذا الاكتشاف الذي نقل الحضارة والمعارف الإنسانية إلى عالم جديد".

وقد تناقل هذه الإشارة الرمزية عدد من الباحثين، وعلماء الآثار، وفي مقدمتهم "أندريه بارو"، مكتشف مملكة "ماري"، ومدير متحف اللوفر في باريس، بما يحمل ذات الدلالة الفخرية عن سوريا وكشوفاتها الأثرية.

ومن المكتشفات الأبرز في قيمتها التاريخية، نص قانوني تمنح الدارسين بحوثاً جديدة عن تطور المجتمع الأوغاريتي، في مدوّنة تُعدّ أقدم وثيقة طلاق بين زوجين في العالم، تعود إلى 1400 قبل الميلاد، تمنح المُشرّعين اطلاعاً نادراً على التنظيم القانوني الذي ينظّم الحياة الملكية والاجتماعية والزوجية، ونُقشت بالأحرف المسمارية الأوغاريتية، ومُهرت بخاتم الملك الحثّي "تودخاليا"، بشأن طلاق "أميشتامرو" ملك أوغاريت من زوجته ابنة ملك "أمورو"، وتحمل اسم "بنتشينا".

فحوى النص حول إعادة المهر، وتدبير خلافة العرش، والحكم بالإقرار على الملكة المطلقة، بعدم إقامة الدعوى بخصوص أولادها، ويحقّ لهم فقط، فيما لو رغبوا بالتخلّي عن وراثة العرش واللحاق بأمّهم، اتباع التقليد التالي: على أكبرهم خلع ردائه، ورميه على كرسي العرش، ويمضي مع أمّه.

(ويُعتقد أن الطلاق كان سببه الخيانة الزوجية، كما ورد في بعض المصادر الأوغاريتية القديمة)، وهذا الرقيم محفوظ في قاعة أوغاريت مع أبرز القطع المكتشفة في الخمسينات من القرن الماضي في متحف دمشق الوطني، بما فيه الأبجدية والمدوّنة الموسيقية.

إن الكتابة عن مملكة أوغاريت ومكتشفاتها، ومعاهداتها وعلومها وذخائرها الأدبية والشعرية بحاجة الى مساحة، لا تكفيها مجلدات، كل ذلك عرفه العالم بأسره عن سوريا، مع ذلك كان شريكاً غير نزيه في دمار الجزء الأكبر من تاريخها وآثارها. سوريا كانت ومازالت مكتبة فريدة للمعارف الأثرية، تمّ تدميرها عن عمد- وبرأي شخصي- لمصلحة من ليس لهم تاريخ ولا جذور، سوى خرافات ليس لها أسانيد واقعية على الأرض.

شهادة

لا يخرق هدوء ليل اللاذقية إلّا صوت فرامل سيّارات عائلة الأسد

مشاهدات من اللّاذقيّة 2006

بقلم: مهنا بلال الرشيد

لا أستطيع الحديث عن مشاهداتي في اللّاذقيَّة عندما أمضيتُ فيها عاماً دراسيّاً كاملاً بين 2005-2006 قبل تحديد معنى أوجاريت من وجهة نظري أوّلاً، ثمَّ الحديث عن سبب تسجيلي هذه المشاهدات ثانياً.

وإن بدأتُ بأوجاريت، الّتي استعان الآثاريُّون برَقم إيبلا لتحديد موقعها في رأس شمرا شمال اللّاذقيَّة ودلالة اسمها على الحقل في اللُّغة الأكديَّة، أميل - بسبب انحدار الأوجاريتيِّين الوراثيّ من أبناء إيبلا وبسبب اشتقاق لغتهم من لغة أجدادهم في إيبلا أيضًا- إلى أنَّ كلمة أوجاريت كلمة أموريَّة، والعرب الأموريُّون أنفسهم شكَّلوا غالبيَّة شعوب بلاد الرَّافدين وبلاد الشَّام والجزيرة الفراتيَّة والجزيرة العربيَّة، والأدلَّة الفيلولوجيَّة اللُّغويَّة والأدلَّة الوراثيَّة المرتبطة بتحليل الحمض النَّوويّ لقبور الأجداد ودماء الأحفاد المعاصرين تؤكّد يومًا بعد آخر الأصول الأموريَّة لمعظم شعوب هذه المنطقة، وفي الوقت ذاته تفتقر تسمية هذه الشُّعوب ولغاتها بالشُّعوب واللُّغات السَّاميَّة إلى أدلَّة كثيرة أخرى (فيلولوجيَّة ووراثيَّة) غير الأسطورة التَّوراتيَّة، الّتي تشير إلى وجود شخصيَّة سام بن نوح وانحدار شعوب هذه المنطقة ولغاتها منه بوصفه جدّا أعلى لمعظم سُكَّان الشَّرق الأوسط المعاصرين.

الأُور والبُور من أوجاريت حتَّى اللّاذقيَّة

تنقسم أوجاريت -بوصفها كلمة أموريَّة إيبلاويَّة- من وجهة نظري إلى كلمتين هما: أُور؛ بمعنى مدينة أو قرية مأهولة بالسُّكَّان، مثل: أورفه في تركيا، وأور سالم أو أور سليم؛ وهو الاسم الأموريُّ القديم للقُدس أو بيت المقدس، وأورحلينا في أفاميا أو قلعة المضيق قرب حماة، وأورم الجوز في إدلب وغيرها، وأورم الجوز في إدلب أصلها أور أمّ الجوز؛ أي القرية المأهولة، الّتي تُزرع فيها أشجار الجوز. ويقابل مصطلح (أُور) الأموريَّ مصطلح (بُور) الأموريَّ الآخر، وإن دلَّ مصطلح (الأور) على القرية المأهولة وأرضها المزروعة، يدلُّ مصطلح (البُور) على الأرض المهجورة غير المسكونة وغير المزروعة أو غير المستصلحة للزِّراعة، وما زال سُكَّان إدلب يطلقون لفظة (البُور) و(البُورة) على كلّ أرض غير مزروعة أو كلّ أرض يفسد زرعها، ولا يستفيد منه مزارعه، وقد استخدم القرآن الكريم بعد أمورِيّي إيبلا وأحفادهم من أمورِيّي أوجاريت هذا المصطلح بالدَّلالة ذاتها؛ فقال سبحانه وتعالى في سورة فاطر: (من كان يريد العزَّة فللَّه العزَّة جميعًا إليه يصعد الكَلِم الطَّيِّب والعمل الصَّالح يرفعه والَّذين يمكرون السَّيِّئات لهم عذاب شديد ومكرُ أولئك هو يبور). [فاطر 10]. وقال سبحانه وتعالى في سورة الفرقان: (قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخذ من دونك أولياء ولكن متَّعتَهُم وآباءَهم حتَّى نَسوا الذِّكر وكانوا قومًا بورًا). [الفرقان 18].

وبعد الإشارة إلى الأصل الأموريِّ لكلمة أوجاريت صار واضحاً لدينا أنَّ هذه الكلمة تتألَّف من كلمتي: (أور) بمعنى الحقل المأهول والمزروع، و(جاريت) أو (غاريت) بمعنى كهف أو مغارة، وأصلُها: مَجاريت أو مغارة، وسقطت منها الميم؛ لأنَّ نُطق أوجاريت أسهل من نطق أورمجاريت، وبالطَّريقة ذاته اختزل الأموريُّون اسم أور أمّ الجوز في إدلب؛ فصارت مشهورة باسم أورِم الجوز؛ وبالمحصَّلة دلَّت كلمة أوجاريت على أرض المغارة أو الحقل المزروع في أرض المغارة. وتروي الأخبار التَّاريخيَّة أنَّ الملك سلوقس الأوَّل نيكاتور خليفة الإسكندر المقدونيّ الأكبر على المشرق قد أطلق اسم والدته (لاوديكيا) على اللّاذقيَّة بدلًا من اسمها القديم (راميتَّا)، الَّذي يدلُّ على الجبل المرتفع، كما غيَّر اسم قلعة المضيق، وسمَّاها باسم زوجته أباميا أو أفاميا.

ركبتُ أوَّل حافلة منطلقة من حلب إلى اللّاذقيَّة، وعبرنا بين حقول الكرز في جبل الأربعين في مدينة أريحا، ونزلنا بين سهل الرُّوج الممتدِّ شمالاً وسهل الغاب الممتدِّ جنوباً، حتَّى وصلنا إلى نهر العاصي؛ فعبرناه في جسر الشُّغور، وصعدنا منها بين جبال اللّاذقيَّة

مشاهدات على الطَّريق إلى اللّاذقيَّة 2005-2006

في بداية العام الدِّراسيّ 2005-2006 استيقظتُ في ساعات الفجر الأولى، وذهبتُ مع والدي -رحمه الله- إلى شمال غرب مدينة سراقب، ونزلت على تقاطع طريق دمشق -حلب الدُّوليّ مع طريق حلب- اللّاذقيَّة الدُّوليّ؛ أي على تقاطع طريقي M5 مع M4 بمصطلحات الوقت الرَّاهن، ثمَّ ركبتُ أوَّل حافلة منطلقة من حلب إلى اللّاذقيَّة، وعبرنا بين حقول الكرز في جبل الأربعين في مدينة أريحا على أطراف جبل الزَّاوية، ونزلنا بين سهل الرُّوج الممتدِّ شمالًا وسهل الغاب الممتدِّ جنوباً، حتَّى وصلنا إلى نهر العاصي؛ فعبرناه في جسر الشُّغور، وصعدنا منها بين جبال اللّاذقيَّة أو جبال العلويِّين كما يسمِّيها ليون كاهون، أو سلسلة جبال السَّاحل السُّوريِّ الغربيَّة كما تسمِّيها مناهج الدِّراسة السُّوريَّة، وشاهدنا الفلَّاحين السُّوريِّين المحبِّين لأرضهم، وهم ينطلقون إلى العمل في حقولهم منذ ساعات الصَّباح الأولى؛ رأينا صبايا يجمعن محصول القطن، وشُبَّاناً ينقلون محاصيل البطاطا والعنب والتِّين والزَّيتون، رجالاً يحرثون الحقول، وآخرين يُقلِّمون الأشجار، شاهدتُ في عيون المسافرين نظرات الإعجاب بالسُّوريِّين عُمَّالاً وفلَّاحين من المنتشرين في الحقول كلِّها بين سهول إدلب ومرتفعات جبال اللّاذقيَّة، حين استرحنا هناك قليلاً، وتناولنا خبز التَّنُّور وفطائر الجبن والفلفل الأحمر، وشربنا الشَّاي، وفي السَّاعة الثَّامنة وخمس دقائق طرقتُ باب القاعة الدِّراسيَّة المخصَّصة لطلَّاب الدِّراسات اللُّغويَّة في كلِّيّة الآداب، وفتحتُ الباب، وقبل أن أحكي كلمة واحدة، قال أستاذي مدرِّس فقه اللُّغة واللِّسانيَّات: "لقد تأخَّرتَ، وبدأ الدَّرس منذ خمس دقائق، يجب عليك أن تتعلَّم احترام المواعيد، أغلق الباب واذهب بعيداً!

رأينا صبايا يجمعن محصول القطن، وشُبَّاناً ينقلون محاصيل البطاطا والعنب والتِّين والزَّيتون رجالاً يحرثون الحقول، وآخرين يُقلِّمون الأشجار

الانتفاضة الصُّوماليَّة

شعرتُ بحسرة وألم كبيرين، وانتظرتُ أستاذي عند الباب حتَّى انتهت محاضرته، سلَّمتُ عليه، واعتذرتُ منه، وأخبرته برحلتي الطَّويلة، وخروجي من بيتي منذ ساعات الفجر الأولى، وسفري من إدلب إلى اللّاذقيَّة بأوَّل حافلة من حافلات السَّفر، تفهَّم أستاذي شيئًا من عذري، ووعدني بنقل موعد المحاضرة إلى السَّاعة العاشرة صباحاً، بعد تأكيده على أهمِّيَّة الدَّرس الَّذي تعلَّمتُه، وحفظته جيِّداً حول ضرورة الالتزام بالمواعيد، واحترام الأستاذ المحاضر واحترام هيبة القاعة الدَّرسيَّة

وزملاء الدِّراسة أيضاً. وفي موقف آخر جمعني بأستاذي أذكرُ أنَّني كنتُ أنتظر قدومه مع زميلاتي وزملائي الآخرين في القاعة الدَّرسيَّة لمحاضرة يوم الثُّلاثاء في الرَّابع من نيسان 2006، ومع بداية الوقت المخصَّص للدَّرس دخل علينا أستاذنا، وكان يحمل بيده كتابًا لم نستطع قراءة عنوانه، وبعد التَّحيَّة قال: ماذا قرأتم في الأسبوع الماضي؟ وماذا حصل البارحة؟ فطلبتُ الحديثَ؛ وحين قلتُ: نُعزِّيك أستاذي الدُّكتور؛ استغربت زميلاتي، واستغربَ زملائي! لكنَّني تابعتُ حديثي؛ وقلتُ: نعزِّي سَلمية، ونعزِّي سوريا كلَّها؛ مات البارحة محمَّد الماغوط؛ ففتح الأستاذ كتابه على نصٍّ بعنوان: (الانتفاضة الصُّوماليَّة)، ووضع الكتاب أمامي؛ وقال لي: اقرأ! فقرأتُ وفكَّكنا النَّصَّ في دراسة لسانيَّة، ونظرنا إلى عنوان الكتاب المكتوب بالخطِّ الأحمر؛ فكان: (سأخون وطني) لمحمَّد الماغوط رحمه الله!

أيَّام في المدينة الجامعيَّة

بعد انتهاء أوَّل يوم من أيَّام الدِّراسة في كلِّيَّة الآداب في جامعة تشرين توجَّهتُ مساء نحو المدينة الجامعيَّة، وفي مخيِّلتي صورة المدينة الجامعيَّة في جامعة حلب، وما إن عبرتُ بين الوحدات السَّكنيَّة حتَّى اكتشفتُ الفرق التَّنظيميَّ والخدميَّ الكبير بين المدينتين الجامعيَّتين؛ في جامعة حلب وحدات مبنيَّة مثل عُلَب الكبريت، وغُرفها صغيرة جدًا، ويعيش في الغرفة الواحدة ثلاثة طلَّاب أو أكثر، ولا مصاعد كهربائيَّة في الوحدات السَّكنيَّة، الَّتي يتولَّى تنظيفها أطفال مشرَّدون صغار، يجمعون من طُلَّاب المدينة الجامعيَّة ما يتبقَّى لديهم من الخبز، بعدما استيقاظهم على ندائهم وأصواتهم العالية: (يابيس.. خبز يابس!) كلَّ صباح!

الوحدات السَّكنيَّة في المدينة الجامعيَّة في جامعة تشرين جميلة وأنيقة، وممرَّاتها نظيفة، وغُرفها واسعة؛ لها نوافذ زجاجيَّة أنيقة وشُرفات كبيرة تطلُّ على بحر اللَّاذقيَّة، وفي كلِّ وحدة سكنيَّة مجموعة من الموظَّفات المسؤولات عن تنظيف البناء، تحصل كلُّ واحدة منهنَّ على معاشها أو راتبها الشَّهريِّ من ميزانيَّة الجامعة، وهنا بدأتُ أفهم بعض أسباب الفرق في النَّظافة بين مدينتين جامعيَّتين، وفهمتُ لماذا كانت كلُّ موظَّفة من موظَّفات كلِّيَّة الآداب في جامعة حلب تتذمَّر دائماً من الطُّلَّاب المراجعين، في حين كانت الموظَّفة في جامعة تشرين في اللَّاذقيَّة تستقبل الطَّالبَ المراجع بسرور وسعادة؛ ورَجَحَ عندي أنَّ أيَّ موظَّف أو موظَّفة سيتذمَّر حُكماً لو كلَّفه مديره بعمل كبير يحتاج إلى خمسة موظَّفين لإنجازه، وفهمتُ لماذا كانت الموظَّفات في كلِّيَّة الآداب في جامعة حلب يغلقن أبواب مكاتبهنَّ المخصَّصة للعمل ساعة أو ساعتين بحجَّة أداء صلاة الظُّهر؛ ولماذا كانت الموظَّفة تُنجز معاملات المراجعين من الطُّلَّاب بكلِّ سرور في جامعة تشرين في اللَّاذقيَّة، ثمَّ أسقطتُ ذلك على عنوان محمَّد الماغوط (سأخون وطني)، وتساءلتُ خلال كتابة هذه الكلمات؛ لماذا فتح لي أستاذي كتابه على نصٍّ بعنوان: (الانتفاضة الصُّوماليَّة)؛ ولماذا بدأت انتفاضة الشَّعب السُّوريِّ ضدَّ عائلة الأسد الحاكمة سنة 2011 أي بعد درسنا وموت محمَّد الماغوط بخمس سنوات تماماً؟!

الوحدات السَّكنيَّة في المدينة الجامعيَّة في جامعة تشرين جميلة وأنيقة، وممرَّاتها نظيفة، وغُرفها واسعة؛ لها نوافذ زجاجيَّة أنيقة وشُرفات كبيرة تطلُّ على بحر اللَّاذقيَّة

لا يكسر صمت ليل اللَّاذقيَّة أو صمت مدينتها الجامعيَّة في معظم الأحيان إلَّا صوت فرامل السَّيَّارة أو صوت علي الدِّيك أو وفيق حبيب القادم من تلك السَّيَّارة الفارهة، الَّتي يقودها غلام من غلمان عائلة الأسد

عند مخرج مدينة جبلة لفتتْ انتباهي هذه العبارة (رفعتْ راجع)؛ يبدو لي أنَّ كاتبَها عنصرٌ قديم من عناصر سرايا الدِّفاع الَّتي دمَّرت مدينة حماة، وارتكبت فيها مجزرتها الشَّهيرة بأمر قائدها المجرم رفعت الأسد

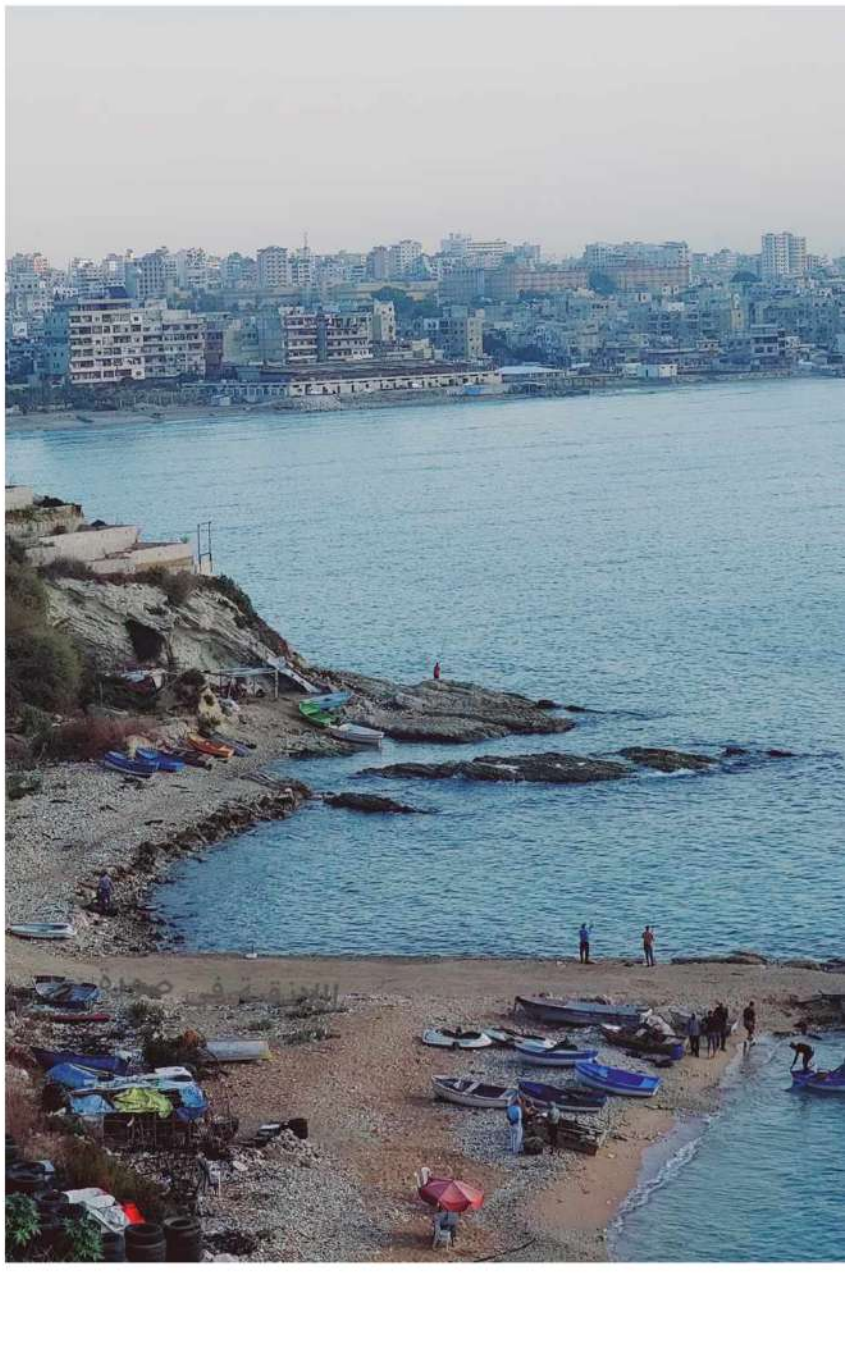

ليل اللَّاذقيَّة

لاذقيَّة العرب مدينة ساحرة، يعشقها كُل من درس في جامعتها، وكُل مَن عاش فيها، أو عبر في شارع من شوارعها، لا بدَّ لمن زارها أن يتذكَّر قوس النَّصر فيها، سيتذكَّر حتَّى الصَّليبة وحَيَّ الزِّراعة، والكورنيش البحريَّ؛ وهنا أستغربُ جدًا من شُعور حافظ الأسد بالوحشة فيها عندما نزل من القرداحة ليدرس فيها، ففي مدينتها الجامعيَّة شبَّان يشربون المتَّة، ويدرسون، ويشرّبوننا المتَّة أيضاً، وعلى الكورنيش البحريِّ مقاهٍ رائعة ومطاعم جميلة ومصايف وشاليهات ومنتجعات تُقدِّم المأكولات البحريَّة وسلطات الفاكهة اللَّذيذة، ويرحل صمتُ الذِّكريات بكثير من السُّوريِّين إلى ساحل اللَّاذقيَّة ومصايفها، يتذكَّرون أصدقاءهم من أبنائها، ولا يكسر صمت ليل اللَّاذقيَّة أو صمت مدينتها الجامعيَّة في معظم الأحيان إلَّا صوت فرامل السَّيَّارة أو صوت علي الدِّيك أو وفيق حبيب القادم من تلك السَّيَّارة الفارهة، الَّتي يقودها غلام من غلمان عائلة الأسد الحاكمة، بعدما جاء ليستعرض ثروته وسيَّارته وسُلطة عائلته على أبناء اللَّاذقيَّة أو أبناء وبنات المدينة الجامعيَّة من الطُّلَّاب القادمين للدِّراسة من هنا وهناك!

في طريق العودة إلى إدلب

في طريق العودة من اللَّاذقيَّة، وفي أربعينيَّة الشِّتاء المثلجة كنَّا نستقلُّ حافلات صغيرة، تنطلق من جبلة إلى بيت ياشوط، وتنزل منها إلى الهبيط وكفرنبودة وقلعة المضيق والسِّقيلبيّة في سهل الغاب، هذا طريق جميل آخر، تشعر فيه بحبِّ الإنسان لأرضه وأرض أجداده، وأنت تشاهد السَّائق وهو يلُفُّ عجلات السَّيَّارة المطَّاطيَّة بأزراد الحديد كيلا تنزلق السَّيَّارة، وهي تعبر الطُّرق الجبليَّة الوعرة بين القمم الجبليَّة العالية؛ تلك القمم الَّتي وقف عليها سلوقس الأوَّل نيكاتور كما تروي الأخبار، وقف بجوار زوجته أباميا الَّتي أحبَّها، وأطلق صقرًا من أعالي الجبال، وقال لها: سأبني لك مدينة حيثُ يقف هذا الصَّقر؛ فالصُّقور لا تعيش إلَّا في بيئة نظيفة؛ حيث الهواء العليل؛ وعندما وقف الصَّقر في حِصن قلعة المضيق على ضفاف نهر العاصي؛ جدَّد سلوقس لزوجته أباميا الحصن، وشيَّد القلعة، وأطلق عليها اسم زوجته؛ فصارت قلعة أفاميا.

إرهاصات الثَّورة

قبل صعود الجبال ونزولها نحو سهل الغاب ثمَّ إدلب وحلب، وقف السَّائق في مدينة جبلة؛ لتجهيز العجلات بسلاسل وأزراد الحديد للعبور الآمن فوق الجليد وثلج الشِّتاء، جلسنا بقربه نشرب بعض الشَّاي؛ لقتل البرد وتمرير الوقت؛ فعبر بجوارنا مجموعة من الرِّجال؛ لا يشبهوننا، أو لا نشبههم؛ لا يشبهون السُّوريِّين المقموعين في جبلة واللَّاذقيَّة وسائر المدن والمحافظات الأخرى؛ كانت أجسادهم ضخمة، وعضلاتهم مفتولة، وقد رسموا على أجسادهم صورًا لحافظ وباسل وبشَّار وماهر الأسد، وكتبوا عبارات التَّأييد، وبعد أن تجاوزونا بمسافة شعرتِ المسافرةُ معنا بجوار مقعدي في الحافلة بشيء من الأمان؛ وأخذت نفسًا عميقًا، وكأنَّها خرجت للحياة من جديد؛ وقالت: يا ربِّي دخيلك!

عند هذا المشهد تحديدًا تذكَّرتُ قُرى الأطفال في قرى (SOS) في خان العسل بالقرب من مدينة حلب، حيث روى لي بعض الأصدقاء أنَّ معظم أطفال قرى (SOS) هم من الأطفال مجهولي النَّسب، يُعثَرُ على كثير منهم مرميِّين في الشَّوارع بعد ولادتهم بساعات أو أيَّام قليلة؛ فينقلون إلى قُرى (SOS)؛ وتُشرف على تربيتهم استخبارات عائلة الأسد المجرمة، ويزورهم بشَّار الأسد وزوجته أسماء الأخرس بين الآونة والأخرى؛ فينشأ لديهم -بفعل التَّربية الخاصَّة- نقمة كبيرة على المجتمع وحبًا غير مفهوم لبشَّار الأسد وعائلته المجرمة، ثمَّ ينقشون على أجسادهم صوراً لهم، ويكتبون عليها: "الأسد أو نحرق البلد" وجُملًا أُخرى تُشبه هذه العبارة، وبعد حديث صدقي تذكَّرت -فعلًا- أنَّ المجرم بشَّار الأسد قُبيل الثَّورة السُّوريَّة ضدَّه بوقت قليل، زار مع زوجته أسماء الأخرس قرى (SOS) في خان العسل قرب حلب، ولعب بعض ألعابه الشِّرِّيرة مع الأطفال الأبرياء قبل تحويلهم إلى وحوش وسجَّانين في تدمر وصيدنايا وهنا وهناك!

رفعت راجع

في طريق عودتي وعلى عمود الجسر عند مخرج مدينة جبلة لفتتْ انتباهي هذه العبارة (رفعتْ راجع)؛ يبدو لي أنَّ كاتبَها عنصرٌ قديم من عناصر سرايا الدِّفاع الَّتي دمَّرت مدينة حماة، وارتكبت فيها مجزرتها الشَّهيرة بأمر قائدها المجرم رفعت الأسد، ويبدو أنَّ كاتب هذه العبارة قد تذمَّر من إهمال حافظ الأسد وابنه بشَّار الأسد لهم، واعتمادهم على السَّجَّانين المدجَّنين من قرى (SOS) بدلاً من الاعتماد عليهم؛ فكتبوا له هذه العبارة، الَّتي طمستها أجهزة الأمن بعد وقت قليل! ولكن حقًا، وبرغم جرائمه، عاد رفعت الأسد إلى سوريا، ولم يحاكمه أحد في فرنسا أو اللَّاذقيَّة أو حماة أو دمشق أو حلب أو جسر الشُّغور؛ عاد رفعت ولكن بعد أن انطلقت انتفاضة السُّوريِّين ضدَّ جلَّاديهم! عاد رفعت، وهجَّر بشَّار الأسد وأخوه ماهر كثيرًا من أبناء اللَّاذقيَّة وأبناء سوريا كلِّها، وقتلت، واعتقلت عائلة الأسد المجرمة وسجَّانوها كثيرين أيضًا.

برغم مزيج الذِّكريات يحدوني الأمل، وأنا أسترجع لحظاتي الجميلة في هذه المدينة، وأنا الإدلبيُّ المحبُّ للَّاذقيَّة وأهلها باستثناء مجرمي هذه العائلة، أكتب، وأنا واثق بأنَّ كثيرًا من القرَّاء يشتركون معي في مشاعري هذه تجاه لاذقيَّة العرب؛ هذه المدينة الجميلة، الَّتي نأمل لها ولأهلنا الكرام فيها وفي مدن سوريا الأخرى كلِّها ما يستحقُّونه من عيش حرٍّ كريم!

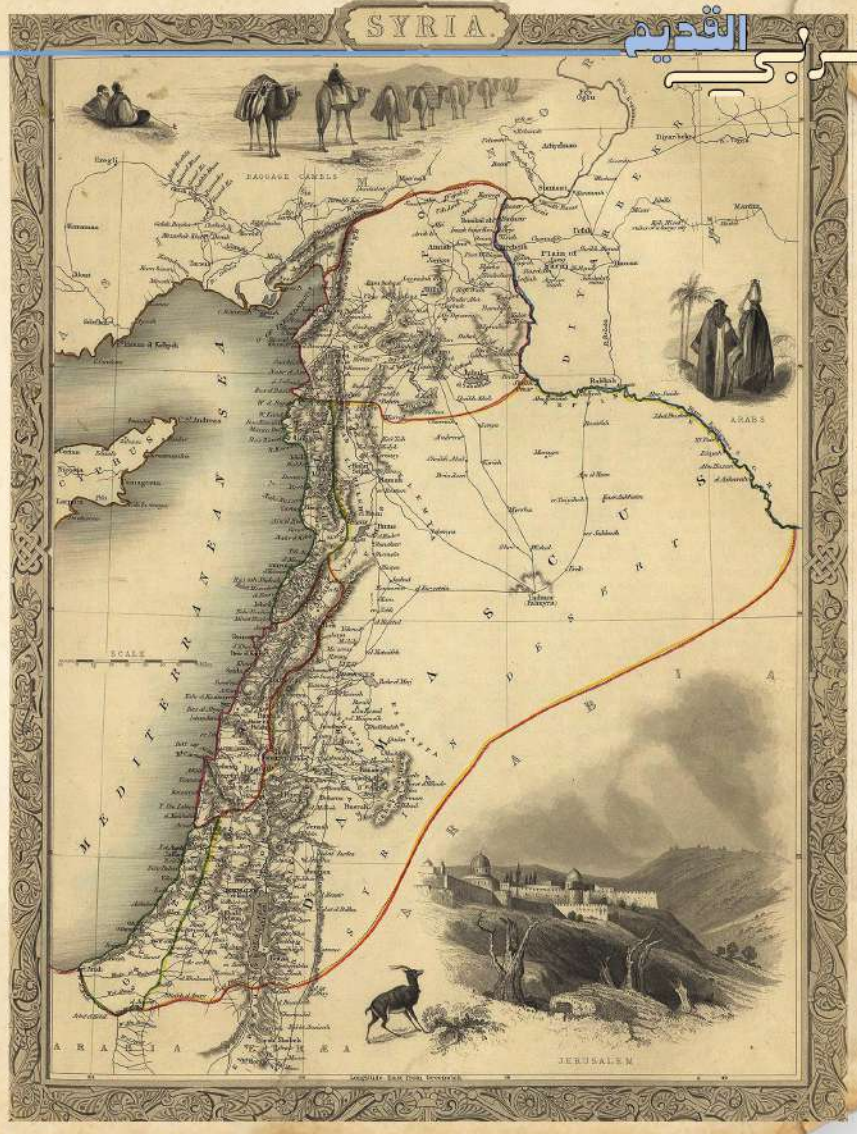

اللاذقية وجبل اللكام الذي أصبح اسمه "جبل العلويين":

الاستيطان العلوي في الساحل السوري

بقلم: رواء علي*

تشكل الزاوية الشمالية الغربية من بلاد الشام الجزء الساحلي من سوريا الحالية المطل على البحر الأبيض المتوسط، وتنقسم هذه المنطقة بدورها إلى قسمين: منطقة السهل الساحلي المطل على البحر وتتركز فيه المدن الرئيسية: أنطاكيا، اللاذقية، طرطوس، جبلة، بانياس وجزيرة أرواد، ويمتد السهل جنوباً ليشمل سواحل لبنان وفلسطين. والقسم الثاني من المنطقة الساحلية، هو السلسلة الجبلية التي تشكل بدورها الجزء الشمالي، مما يعرف تاريخياً باسم (جبال اللكام) الذي يمتد من البحر الأحمر حتى أنطاكيا، ويأخذ أسماء محلية، بحسب البلد الذي يمر به: جبل لبنان، جبل بهراء وتنوخ، جبل اللكام في اللاذقية، ولاحقاً أطلق عليه جبال النصيرية بعد ظهور النصيرية فيه

أوغاريت وأرواد الفينيقية، واللاذقية الإغريقية

شكل السهل الساحلي من أنطاكيا وحتى فلسطين، الموطن التاريخي لكنعانيي الساحل الذين عرفوا تاريخياً باسم الأوفينيقيين. في هذا السهل قامت مدنهم التاريخية التي مازال معظمها موجوداً وأشهرها: أوغاريت، وأرواد، وجبيل، وصور، وصيدا... أما المناطق الجبلية، فلا يُعرف بشكل دقيق نوعية من سكنها، وإن كانت بعض أسماء المناطق الحالية يمكن إرجاعها إلى الآرامية أو الكنعانية، مما يدل على وجود بشري سامي، منذ القدم في تلك المناطق، مع أن العنصر الهندو أوربي شكل شريحة مهمة من سكان الجبال، كامتداد للعنصر نفسه الذي سكن الأناضول، من مثل الحثيين، والكاشكيين، واللوديين... وأشهر امتداداتهم المعروفة في العصور الوسطى (الجراجمة)، أو (المردة) من بقايا الفرس الميديين.

خضعت مدن الساحل في أواخر العصور القديمة للسيطرة الآشورية والكلدانية، وكانت سيطرة متذبذبة قوبلت بالثورات أحياناً، لدوافع ذاتية لهذه المدن، أو بتحريض من الفراعنة، ثم دخلت المنطقة تحت السيطرة المباشرة للفرس الأخمينيين، الذين أثّروا في التركيبة السكانية، من خلال الجيوب التي وطنوا فيها كحاميات عسكرية، وقد بقيت موجودة كعنصر بشري، بعد سقوط الأخمينيين، وحتى الفتح الإسلامي، لاسيما في مدن لبنان الساحلية... وخلال العصر الهلنستي، فإن من أهم ما خلفه الإغريق في المنطقة، مدينتي اللاذقية وأنطاكيا، وبقايا الإغريق الذين استقروا في تلك المدن، فلما جاء الرومان أضافوا العنصر الروماني للتركيبة السكانية، والتي بقيت على شكل حاميات عسكرية حتى الفتح الإسلامي.

اللاذقية وتوابعها في الفتح الإسلامي

ابتدأ الفتح الإسلامي للساحل الشامي، قبل معركة اليرموك، وبعد فتح دمشق، حيث إنه بعد فتح حمص سنة 14هـ، أُرسلت حملة عسكرية بقيادة عبادة بن الصامت الأنصاري الذي سار إلى اللاذقية، وحاصرها حتى دخلها بالحيلة، وهرب كثير من أهلها النصارى، ثم عادوا، وصالحوا المسلمين على خراج يؤدونه، فصالحهم عبادة، وترك لهم كنيستهم، وبنى في المدينة مسجداً، فكان ذلك بداية دخول الإسلام.

وبعد فتح اللاذقية فُتحت جبلة، وأنطرسوس (طرطوس)، وبانياس، وكانت حصوناً عسكرية، غادرها أهلها من الروم سنة 15هـ، تبع ذلك فتح أنطاكيا، والجرجومة. ويلاحظ من مجمل الروايات التاريخية عن الفتح الإسلامي، لتلك النواحي غياب العنصر العربي في التركيبة السكانية في تلك المناطق؛ فكان تعامل الفاتحين يتم مع نصارى غير عرب، ويلاحظ أيضاً أنه عند الفتح لم تكن، سوى اللاذقية، وأنطاكيا في المدن الساحلية الشمالية، ما يمكن أن نطلق عليه اسم مدن، اكتسبت شهرتها عبر الزمن من اهتمام السلوقيين الذين بنوها، وأطلقوا عليها أسماءها الحالية، وبقيت لها خلال العصر الروماني أهميتها، بينما أماكن مثل جبلة، وبانياس، وطرسوس، فكانت أقرب للحصون العسكرية البيزنطية، جلى عنها معظم سكانها من البيزنطيين بعد الفتح الإسلامي.

من أهم ما خلفه الإغريق في المنطقة، مدينتي اللاذقية وأنطاكيا، وبقايا الإغريق الذين استقروا في تلك المدن

بعد فتح دمشق وحمص سنة 14هـ أُرسلت حملة عسكرية بقيادة عبادة بن الصامت الذي سار إلى اللاذقية وحاصرها حتى دخلها بالحيلة، وهرب كثير من أهلها النصارى ثم عادوا وصالحوا المسلمين على خراج يؤدونه

المناطق الجبلية المحاذية للاذقية، لم تكن مما يستهوي العرب السكن فيها؛ لأن العرب تفضل السهل على الجبل.

حدث بعد الفتح الإسلامي للمناطق الساحلية الشمالية الغربية من بلاد الشام فراغ سكاني في مدن الساحل عموماً؛ بسبب اعتماد سياسة الإجلاء للسكان المحليين، أحياناً بسبب مساعدتهم للبيزنطيين، أو بسبب هجرة طوعية من السكان المحليين الذين لحقوا بالروم رافضين دفع الجزية أو الإسلام، مثلما حدث مع جبلة بن الأيهم الغساني الذي لحق بالروم مع 30 ألفاً من قومه، كما أن وقوعها في ما بعد على خطوط الاشتباك بين المسلمين والبيزنطيين، جعل منها أماكن لا يرغب كثير من الناس بالاستقرار فيها لانعدام الأمان، ناهيك عن أن المناطق الجبلية المحاذية لها لم تكن، مما يستهوي العرب السكن فيها؛ لأن العرب تفضل السهل على الجبل.

التوطين والإعمار في العهد الأموي

في ما بعد تسبب الفراغ السكاني في فراغ أمني، حاول العرب تعويضه، بإعادة إعمار المدن الساحلية، ونقل السكان إليها من مناطق أخرى لصد غارات البيزنطيين، وبدأ بهذه السياسة معاوية بن أبي سفيان، منذ أن كان والياً على الشام، زمن عمر بن الخطاب، فيذكر أنه نقل جماعة من الفرس وأهل بعلبك، وحمص إلى أنطاكيا، وبنى حصناً في جبلة، وشحنه بالرجال، وبنى مدينة أنطرطوس (طرطوس) ومصرها، وأقطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس ونقل سنة 49 هـ إلى السواحل قوماً من زط البصرة، وأنزلهم أنطاكيا، وأسكن الوليد بن عبد الملك، في ما بعد مثلهم من زط السند، وقد بقيت سياسة التوطين والإعمار لمناطق الساحل معمولاً بها، طوال العصر الأموي، وحتى بداية العصر العباسي، فنقل أبو جعفر المنصور سنة 758هـ، ومن بعده المأمون سنة 820هـ جل عرب معرة النعمان، وأُسكنوا في بيروت وما جاورها لصد غارات الروم المتكررة، وحماية الطرق من حلفاء الروم.

وقد كان من الأسباب الإضافية لنقص السكان غير ما مر الكوارث الطبيعية، لاسيما الزلازل التي كانت تشهدها المنطقة على فترات متباعدة، أشهرها سنة 245هـ الذي دمر جبلة، وأهلك أهلها، ولم يسلم من اللاذقية إلّا اليسير. أما إغارات الروم المتكررة، فكانت عاملاً إضافياً مستداماً ساهم في نقص السكان الذين كانوا يتعرضون في حالات الانكسار للقتل، أو السبي أو التهجير، ومع كل هذا، وخلال قرنين من الزمن بعد الفتح تكاثر العرب المسلمون في المدن الساحلية، وأصبحوا عنصراً مهماً من سكانها، إن لم يكن الأهم، لاسيما القبائل اليمانية التي شكلت غالب العرب في جند حمص، الذي كانت المدن الساحلية الشمالية تتبع له خلال القرن الثالث الهجري، من خلال ما ذكره اليعقوبي (ت 295هـ)، فيقول:

"وعلى ساحل البحر من جند حمص أربع مدن: مدينة اللاذقية، وأهلها قوم من يمن من سليح، وزبيد، وهمدان، ويحصب وغيرهم، ومدينة جبلة، وأهلها همدان، وبها قوم من قيس، ومن أياد، ومدينة بلنياس وأهلها أخلاط، ومدينة أنطرطوس، وأهلها قوم من كندة".

---

* باحث في التاريخ من أبناء القلَمون

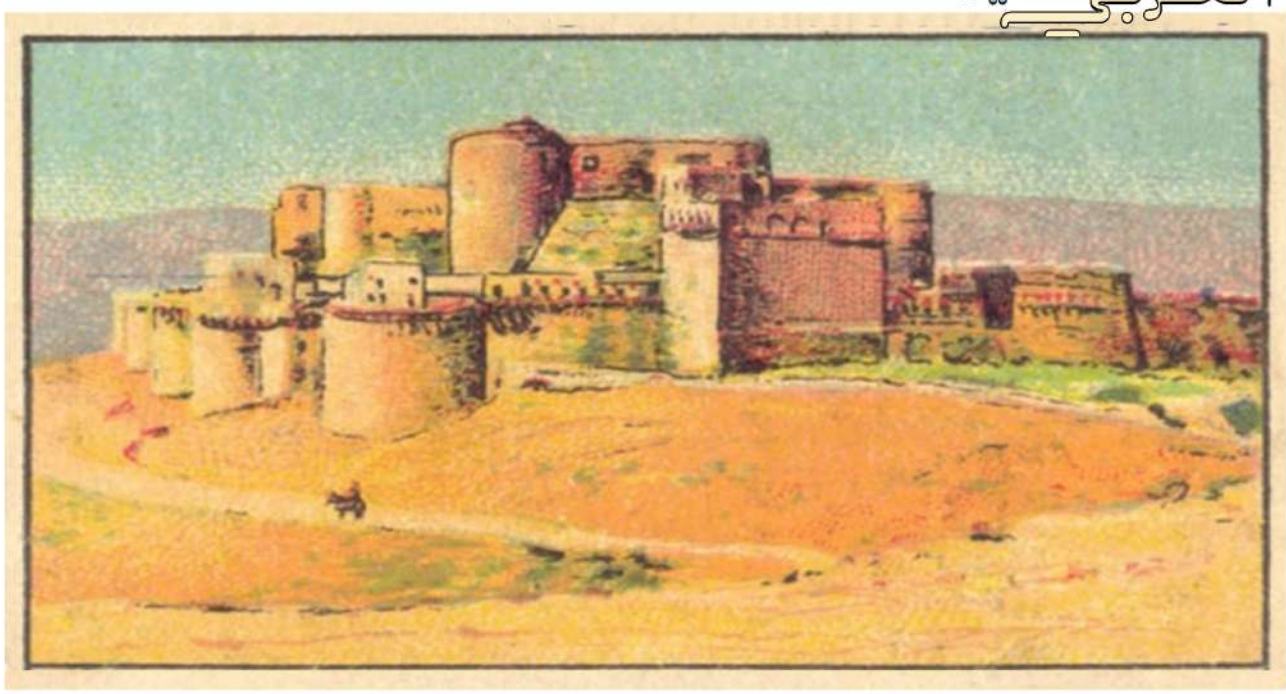

جبال اللكام الساحلية

أما في الجبال الساحلية المحاذية للمدن الساحلية، والتي يطلق عليها اسم جبال اللكام، فإن العنصر البشري الذي سكنها، منذ قبل الفتح الإسلامي، كان خليطاً من عنصرين أساسيين: النبط (السريان)، والجراجمة، وقد مثل الجراجمة مع من كان ينحاز إليهم من النبط، منذ مطلع العصر الأموي مشكلة للدولة الأموية، من خلال انحيازهم للبيزنطيين، وقطع طرق الثغور، والإغارة على حصون المسلمين وجيوشهم في أوقات تحرك هذه الجيوش في مناطق الثغور... كان أكبر تجمع للجراجمة قرب أنطاكيا في مدينة لهم، اسمها الجرجومة، فتحها أبو عبيدة بن الجراح سلماً على شروط عند فتح أنطاكيا، وبقي الجراجمة بعدها متذبذبين بين المسلمين والبيزنطيين، حتى مطلع حكم عبد الملك بن مروان، حيث شنوا الغارات بمساعدة البيزنطيين على طول جبال اللكام، ووصلوا حتى لبنان، وساعدهم النبط، فاضطر عبد الملك لمهادنتهم على مال يؤديه لهم؛ لانشغاله بحرب ابن الزبير، ثم لما فرغ من ابن الزبير أرسل لهم قوة عسكرية فرقت شملهم، فعاد أغلبهم إلى الجرجومة، وانتشر بعضهم في قرى حمص، فلما كانت خلافة الوليد بن عبد الملك، أرسل إليهم حملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك، فاجتاح بلادهم، وهدم الجرجومة، ونقل معظم الجراجمة إلى لبنان وأسكنهم هناك.

مع نهاية الدور الأول العباسي الذي انتهى بقتل الخليفة المتوكل سنة 232هـ على يد الأتراك، وسيطرة الأتراك على مقاليد الحكم، ضعفت الخلافة، وأصبحت اسماً دون معنى، وتراخت قبضتها على الأطراف، وكان منها بلاد الشام، التي أصبحت مرتعاً للدعوات الشيعية، والتنازع بين الإمارات شبه المستقلة عن الدولة كالحمدانيين، والإخشيديين، والولاة الأتراك للدولة العباسية، فنتج عن هذا مطلع القرن الرابع الهجري ظهور قوى جديدة كان الطابع المميز لها أنها شيعية. فقد نجح الإسماعيليون انطلاقاً من سلمية قرب حمص من إشعال ثورة في شمال إفريقيا، بمساعدة البربر، انتهت بسيطرتهم على تونس سنة 296هـ، ثم ضموا إليها مصر التي أصبحت قاعدتهم، انطلقوا منها نحو بلاد الشام، ليصطدموا في فترة لاحقة مع الحمدانيين الشيعة الذين سيطروا على حلب، وما جاورها، وامتدوا نحو وسط سوريا، هذا في الوقت الذي انشق جناح من الإسماعيلية مشكلاً جماعة القرامطة التي انخرطت في النزاع نفسه على بلاد الشام مع الأطراف الأخرى، ولم يلبث بتأثير من دعاة القرامطة، أو الإسماعيلية أن حدثت إحدى أكبر الهجرات العربية للقبائل البدوية، نحو بلاد الشام، وتشكلت بشكل أساسي من قبائل بني عامر بن صعصعة القيسية (نمير، عقيل، قشير، كلاب، هلال، سليم)، وكان ما يميز هذه القبائل أنها شيعية المعتقد، دون أن يُعرف تماماً كيف تشيعت، ونتج عن هذه الهجرة تغيير في التركيبة الدينية لبلاد الشام التي أصبحت، إما شيعية أو محكومة من قبل دولة شيعية، وفي خاتمة هذه التغييرات التي حدثت مطلع القرن الرابع الهجري، سيطر البويهيون، وهم شيعة من فرس الديلم سيطروا على بغداد، وأصبحوا هم الحكام باسم الخليفة المغلوب على أمره.

ظهور الفرق الباطنية

كانت هذه الأوضاع التي اتسمت بها بلاد الشام في القرن الرابع، هي ما شكل البيئة الخصبة لظهور الفرق الباطنية واستقرارها في بلاد الشام، ومن ثم تصارعها وتطاحنها في الشمال الغربي لبلاد الشام، بدأ الأمر أولاً بالإسحاقيين، ثم ظهر النصيريون، ثم تبعهم في الظهور الدروز، وأخيراً الإسماعيليون أتباع قلعة (ألموت) وحسن الصباح.

الأوضاع التي اتسمت بها في القرن الرابع، شكل البيئة الخصبة لظهور الفرق الباطنية واستقرارها في بلاد الشام ومن ثم تصارعها في الشمال الغربي للبلاد، بدأ الأمر أولاً بالإسحاقيين، ثم ظهر النصيريون، ثم تبعهم في الظهور الدروز، وأخيراً الإسماعيليون أتباع قلعة (ألموت) وحسن الصباح.

انتقل الطبراني الذي ورث زعامة النصيريين، من حلب إلى اللاذقية، وعلى إثر هذا بدأ أتباعه من النصيريين بالتحول للسكن في الجبال الساحلية.

القرن الخامس الهجري، هو القرن الذي بدأ فيه زوال النفوذ والتواجد الشيعي في المنطقة، ومن ثم نهاية القرن الشيعي (القرن الرابع).

ولو رجعنا لنهاية القرن الثالث، وبالتحديد لعام 287هـ، فإن شخصية كانت مجهولة وقتها، اسمها الحسين بن حمدان الخصيبي، هاجر من جنبلاء إلى بغداد، بعد أن مات شيخه المعروف باسم الجنان الجنبلاني الذي تعلم الخصيبي منه أصول العقائد الغالية، واعتنق النصيرية على يديه، هاجر الخصيبي إلى بغداد، وأقام فيها قرابة خمسة وعشرين عاماً، انخرط فيها هناك في المجموعات الشيعية والصوفية، وربطته بأحد دعاة الإسماعيلية علاقة وثقى، وهو الحسين بن منصور المعروف تاريخياً باسم "الحلاج"، تسببت هذه العلاقة بسجن الخصيبي، بعد أن تم قتل الحلاج في بغداد بتهمة الزندقة سنة 309هـ، وبقي في السجن لثلاث سنوات، وغادره عام 312هـ، ولحق بالشام، في الوقت الذي كان الصراع على أشده بين الخلافة والإخشيديين، والقرامطة، والحمدانيين للسيطرة على بلاد الشام، فأقام في حلب برهة، ثم غادرها جنوباً نحو دمشق التي بقي فيها حتى عام 333هـ، وهو العام الذي سيطر فيه البويهيون على بغداد، والحمدانيون على حلب، فغادر الشام إلى العراق، فأقام فيه فترة قصيرة، ثم رحل إلى حلب، واتصل بسيف الدولة الحمداني، ومات الخصيبي عام 346هـ أو بعدها، ودفن في حلب.

عندما مات كان قد ترك عدة جيوب نصيرية في بلاد الشام، لا تعرف أعدادها، ولكن يعرف وجودها، من خلال المصادر النصيرية، والمصادر التاريخية أهمها في حلب وما جاورها، حيث أقام، وفي حران، وفي مدن الساحل اللبناني: صور، وصيدا، وبعلبك، وفي منطقة الجولان، وطبريا.

بعد الخصيبي أشرف على تجمع النصيريين في حلب تلميذ له، اسمه محمد بن علي الجلي، وكان أنجب مريديه، وأقربهم إليه هو الميمون بن قاسم الطبراني (358-426هـ) الذي يعود أصله إلى منطقة طبرية شمال فلسطين، وفي زمن الطبراني هذا الذي ورث زعامة النصيريين بعد شيخه الجلي، حدث حدثان مهمان في تاريخ النصيرية:

- الأول افتتاح النزاع بينه، وبين زعيم الإسحاقية أبي ذهيبة إسماعيل بن خلاد، ومن ثم النزاع الدموي بين النصيرية والإسحاقية.

والثاني انتقاله من حلب، وإقامته في اللاذقية، وعلى إثر هذا بدأ أتباعه من النصيريين بالتحول للسكن في الجبال الساحلية.

الإسحاقية والنصيرية

ظهرت الإسحاقية المنسوبة إلى إسحاق بن محمد النخعي بشكل متزامن مع النصيرية، وكان صاحبها مع صاحب النصيرية محمد بن نصير النميري من الجماعة الغالية نفسها، لكن التنافس الشخصي بين الشخصين، أدى لانقسام ظهر بموجبه فرعان، انتسب كل واحد منها لصاحبه، مع أن الإسحاقية دون النصيرية بدرجة في الغلو، فالنصيرية تؤله علي بن أبي طالب، أما الإسحاقية فتؤله محمداً صلى الله عليه وسلم، وفي فترة ما بعد نشوب النزاع، بين فرق الشيعة عموماً على بابية الإمام الغائب، انقسم الغلاة إلى فرقتين: الإسحاقية والنصيرية، وفي وقت سابق عن النصيرية أوجدت الإسحاقية موطئ قدم لها خارج العراق، فانتشرت في المدائن، وظهرت في المدن الساحلية اللبنانية، وامتدت إلى جبال الساحل السوري. وقد ظهرت الإسحاقية مطلع القرن الخامس الهجري، من خلال زعيمها إسماعيل بن خلاد البعلبكي الذي تنعته المصادر النصيرية بكنية (أبو ذهيبة)، وينعته الطبراني باسم (الرجل المرجل، وطائفته باسم العصابة المقصرة)، وقد عاصر ميمون الطبراني وتنازع معه فكرياً أولاً، في نزاع هو تكرار للنزاع نفسه، بين ابن نصير، وإسحاق بن محمد، ثم تطور النزاع من الاشتباك الفكري إلى الاشتباك بالأيدي، انتهى أخيراً بمقتل ابن خلاد، بعد أن تحول ميمون إلى اللاذقية فاتحاً الطريق لمن هو نصيري لقتل كل من هو إسحاقي!

إن الأحداث السابقة من صراع النصيرية مع الإسحاقية، وبدء إيجاد موطئ قدم لها في الساجل السوري بقيادة ميمون الطبراني، لم تحدث بمعزل عن الظروف المحيطة في المنطقة، والتي استجدت مطلع القرن الخامس الهجري، القرن الذي بدأ فيه زوال النفوذ والتواجد الشيعي في المنطقة، ومن ثم نهاية القرن الشيعي (القرن الرابع).

تغيير هوية المنطقة الساحلية

في عام 296هـ نجح الإسماعيليون في إنشاء دولتهم في شمال إفريقيا، على أنقاض دولة الأغالبة، ثم سيطروا على كل شمال أفريقيا، وفي السنين اللاحقة قاتلوا الإخشيديين في مصر، حتى نجحوا في السيطرة على مصر، وأسسوا القاهرة التي أصبحت عاصمتهم، منذ عام 362هـ زمن المعز لدين الله الفاطمي، وبعدها عملوا على مد نفوذهم إلى بلاد الشام، فدخلوا في نزاع مع

مع القرامطة والحمدانيين، انتهى بسيطرتهم على معظم بلاد الشام، حتى حلب سنة 363هـ، التي سقطت فيها الإمارة الحمدانية التي عاشت الجماعة النصيرية في سلطانها، ولم يلبث أن سيطر بنو مرداس الكلابيون على حلب مؤسسين الدولة المرداسية وقاعدتها حلب، منذ عام 414هـ، ومدوا نفوذهم إلى الساحل اللبناني وشمال سورية، ودخلوا في علاقات متذبذبة مع الفاطميين تراوحت بين الحرب والمهادنة، واستمروا في حكم حلب حتى عام 472هـ، حيث حل مكانهم العقيليون أصحاب الموصل. وفي الزمن الذي حكم المرداسيون فيه حلب حدثت عدة تحولات تاريخية ودينية في المنطقة، ساهمت في تغيير هوية المنطقة الساحلية عموماً:

1. كان المرداسيون، مثل الحمدانيين شيعة، ورغم ذلك لم يستسغ ميمون الطبراني الإقامة في حلب تحت حكمهم؛ ربما لعلاقتهم بالإسماعيليين الودية أحياناً، أو ربما - ولا يوجد دليل- أنه كان لهم ميل للإسحاقية القريبة في معتقداتها للإسماعيلية؛ لذا ترك ميمون حلب، وانتقل إلى اللاذقية، وبانتقاله بدأت عملية هجرة النصيريين من مركز انتشار النصيرية في داخل بلاد الشام إلى الجبال الساحلية، حول طرطوس، وسهل الغاب، أما الجبال شمال اللاذقية، فلن يظهر العنصر النصيري فيها إلّا في العصر المملوكي. ولم يحدث هذا الانتقال النصيري دفعة واحدة، بل استغرق زمناً حتى صار واقعاً، والذي يعرف عن ميمون بعد انتقاله إلى اللاذقية، هو صراعه مع زعيم الإسحاقية ابن خلاد الذي قُتل خلال هذا الوقت، واستتاب أتباعه به، فقاتلوا الإسحاقيين، فقتلوهم وشرّدوهم، وأحرقوا بيوتهم وآثارهم، ومن بقي بعدها من الإسحاقية سيكمل اجتثاثه المكزون السنجاري بعد قرنين من زمن الطبراني. بعد أن انتهى ميمون من الإسحاقية استقر في اللاذقية في منطقة الميناء القديم، وبقي هناك حتى مات 426هـ، ودفن في مسجد الشعراني على أنه رجل دين صوفي، وبقي قبره موجوداً هناك حتى الثمانينيات من القرن العشرين، حيث نقل قبره إلى قرية بسنادا.

2. في عام 386هـ توفي الخليفة الفاطمي العزيز، وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله، وكما هو معروف، فإن الحاكم ادعى الألوهية، وجاهر بما لا يجب من عقائد الإسماعيلية الباطنية، فأسس بذلك لدين جديد بالنسبة لعوام الناس، مما دفع البيت الحاكم لاغتياله، فظهر تبعاً لادعاءات الحاكم في الألوهية جماعة من الإسماعيليين ألّهت الحاكم وعبدته، وعندما قُتل تحولت هذه الجماعة للسكن في بلاد الشام، وبالتحديد في وادي التيم (جنوب شرق لبنان بين الجنوب والبقاع)، دعيت هذه الجماعة تاريخياً وفي المصادر باسم الدروز، نسبة لشخص إسماعيلي، اسمه (نشتكين الدرزي)، لكن ولاءها كان لحمزة بن علي الزوزني الذي مثل دور نبي الحاكم والمبشر بعودته. عندما سكن الدروز في وادي التيم جاوروا مجموعات من النصيرية سبقتهم في الاستقرار هناك، ولم يكن هناك ود بين الطرفين، لكن حالة العداء لم تتطور إلى الاشتباك المباشر، كما حدث مع الإسحاقية، بل توقفت عند الجدل الفكري الذي مارسه الدروز، ضد العقائد النصيرية التي اعتبرها حمزة بن علي عقيدة كفرية إباحية في إحدى رسائله المعروفة بعنوان "الرد على الفاسق النصيري لعنه الله". وفي وقت لاحق، سيتحالف النصيريون مع الدروز في قتال الطلائع الأولى للإسماعيليين الحشاشين، عند ظهورهم في المنطقة في وادي التيم، أما الدروز فيما يبدو فلم يتوسعوا في مناطق سكنهم، باتجاه جبال الساحل الشمالية، وبقيت كتلتهم الأساسية في جبل لبنان، والمدن اللبنانية الساحلية في صيدا، وصور، وقد ذكرهم بنيامين التطيلي في رحلته، نهاية القرن السادس الهجري، أنهم في الساحل اللبناني، ونسب لهم عقائد إباحية، هي أقرب للنصيرية، مما يوحي أن الأمر اختلط عليه.

3. بعد الانشقاق الدرزي عن الإسماعيلية، بعد موت الحاكم بأمر الله سنة 411هـ، حدث انشقاق آخر في الإسماعيلية الحاكمة في مصر سنة 487هـ، فقد مات الخليفة المستنصر حفيد الحاكم بأمر الله، ونشأ صراع بين ولديه المستعلي، ونزار على خلافته، وانتهى النزاع بقتل نزار، وانتصار المستعلي، فانقسمت الإسماعيلية لقسمين: المستعلية (البهرة حالياً)، والنزارية (الأغاخانية حالياً)، وقد مال حسن الصباح صاحب قلعة الموت إلى نزار، وكان هذا الميل هو سبب ظهور الجماعة الإسماعيلية (الحشاشون) في بلاد الشام، ثم تركزها في المناطق الجبلية في سهل الغاب منافسة ومزاحمة للنصيرية في تلك المناطق.

4. في زمن المستنصر الذي حدث بعد موته الانشقاق الإسماعيلي، ظهرت من شرق الخلافة قوة ناشئة هم السلاجقة بقيادة سلطانهم طغرلبك الذين زحفوا إلى بغداد، بطلب من الخليفة العباسي، فدخلوا بغداد، وأنهوا التسلط الشيعي البويهي سنة 447هـ،

استقر ميمون الطبراني في اللاذقية في منطقة الميناء القديم، وبقي هناك حتى مات 426هـ، ودفن في مسجد الشعراني على أنه رجل دين صوفي، وفي ثمانينات القرن العشرين، نقل قبره إلى قرية بسنادا.

تحالف النصيريون مع الدروز في قتال الطلائع الأولى للإسماعيليين الحشاشين، عند ظهورهم في المنطقة في وادي التيم

ثم زحفوا نحو الشام في زمن السلطان ألب أرسلان، وخلال الفترة بين عامي 463-465هـ سيطروا على معظم بلاد الشام، وأنهوا الوجود الإسماعيلي الفاطمي الذي عاد، واستعاد بيت المقدس بعد سنوات، ولكن عندما حدث هذا كانت طلائع الصليبيين قد وصلت بلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى سنة 492هـ، فوقعت بلاد الشام بين ضغط قوتين: السلاجقة من الشرق، والصليبيين من الغرب، فكان ذلك مما سرع عملية انحسار القوى الشيعية عموماً، وانسحاب أتباع الفرق الباطنية، لاسيما النصيريين، والجناح الإسماعيلي النزاري نحو المناطق الساحلية الجبلية، وكان الخطر الأكبر على أتباع هذه الفرق الباطنية من القوى السنية التي استعادت نفوذها وقيادتها لبلاد الشام في مواجهة الغزو الصليبي، خلال الدولتين الزنكية والأيوبية، فالنهضة السنية التي رعاها نور الدين زنكي من إزالة مظاهر التشيع، ونشر السنة أدت إلى إنهاء الدولة الفاطمية، ومدها الشيعي، ووضعت أتباع المذاهب الباطنية في حالة حصار، ضمن وسط سني، فلم يكن من خيار أمامها سوى التغير، بما يناسب متطلبات العصر، أو الرحيل، فانسحبت التجمعات النصيرية بشكل متدرج من مناطق وجودها في الداخل، نحو المعاقل الجبلية، حيث لا تطالها يد السلطة الحاكمة، فزال وجودهم من حمص، وحماة، ومدن الساحل اللبناني، ومن حلب معقلهم الأساسي إلّا قليلاً منهم آثر الإقامة متخفياً بعقائده، واستمر حتى العصر العثماني، وكذلك فعل من بقي من أتباع الإسماعيلية، فحل النصيريون، والإسماعيليون في المناطق الجبلية الساحلية متجاورين ومتحاربين غالباً.

الصراع الإسماعيلي النصيري

في عام 487هـ، عندما مات الخليفة الفاطمي المستنصر، وظهر الانشقاق المستعلي-النزاري كان حسن الصباح قد سيطر على قلعة الموت، وأسس جماعة الحشاشين الإسماعيلية المعروفة تاريخياً، وبدافع موالاته لنزار أرسل بعد مقتله إلى الشام أحد أتباعه، ويدعى بهرام الذي مارس نشاطاً دعوياً في حلب ودمشق منذ سنة 519هـ، وتقرب من حاكم دمشق السلجوقي البوري الذي شعر بخطره بعد حين، فأعطاه قلعة بانياس الجولان؛ ليتخلص منه، فاتخذها قاعدة للتوسع، ونشر الدعوة، ونجح بعد سنتين في دخول وادي

مقام الميمون بن قاسم الطبراني في (بسنادا) بريف اللاذقية

التيم، حيث اصطدم مع تحالف نصيري درزي انتهى بقتله، وتبع ذلك عملية ملاحقة، وقتل لأتباعه في دمشق، وطردوا من بانياس، فاتخذوا من مناطق الجبال الساحلية الشمالية ملجأ تجمعوا فيه، واشتروا عام 526هـ قلعة القدموس، ثم قلعة الكهف قرب طرطوس.

انطلاقاً منها سيطروا على قلعة مصياف سنة 534هـ التي أصبحت مركزاً لهم، ثم وسعوا نفوذهم وسيطروا على قلاع: الخوابي، والعليقة، وأبو قبيس، والمرقب، وهي ما سميت بقلاع الدعوة، على مقربة من مناطق انتشار النصيريين الذين خضعوا لضغط الإسماعيليين، مع تسلم شيخ الجبل راشد الدين سنان قيادة الإسماعيليين في المنطقة سنة 557هـ، فكانت العلاقة متذبذبة، حيث يذكر مصدر إسماعيلي أن النصيريين من أشد أعداء راشد الدين، بينما يذكر أيضاً أن قسماً منهم وقفوا مع الإسماعيليين في نزاعهم مع الصليبيين، وفي جميع الأحوال كانت العقلية النصيرية في ذلك الوقت غالباً تساير الظروف، فقد تخضع للإسماعيليين، أو تنقلب عليهم إذا وجدت الفرصة، وقد تصبح صليبية إذا استدعى الأمر ذلك، وجاء في تقويم الأزمنة أن 60 ألف نصيري اعتنقوا المسيحية؛ ليتخلصوا من الأتاوات التي كانوا يدفعونها للصليبيين. والأمر نفسه يقال عن الإسماعيليين في علاقتهم مع محيطهم زمن شيخ الجبل، فقد كانت علاقته تتبع المصلحة الآنية أكثر من العقيدة، فقد يتحالف مع الصليبيين إذا ما جاء التهديد من صلاح الدين، فقد حاولوا قتله أكثر من مرة، ثم تحالفوا معه، عندما أوشك على اجتياح قلاعهم، ونفذوا عدة عمليات اغتيال بالصليبيين لصالح صلاح الدين.

بعد عام 567هـ، وبعد معركة حطين، واستعادة القدس 582هـ، مات شيخ الجبل سنة 588هـ، وبدأ الحشاشون يخسرون قلاعهم، وضعف تأثيرهم في الأحداث؛ لذا انكفؤوا نحو المنطقة المنتشرين فيها، ومارسوا مع من انضم من أكراد إلى المنطقة ضغطاً على النصيريين، دفع النصيريين للاستنجاد بقوة من خارج المكان لحمايتهم، فجاءهم المكزون السنجاري من جبل سنجار (سنجار إدلب غالباً، وليس سنجار العراق كما يزعمون) بحملتين، يبالغ النصيريون في أعدادها، ففي الحملة الأولى سنة 617هـ انهزم المكزون وأتباعه أمام الإسماعيليين، فانسحب وعاود الكرّة بعد ثلاث سنوات بحملة أكبر، هزم فيها الإسماعيليين وقاتل الأكراد، ولم ينسَ المكزون الإجهاز في طريقه على من بقي من الإسحاقية، فجمعهم وناظرهم، وأحرق كتبهم، وأعدم زعماءهم، ثم نظم أمور العلويين، وارتحل من المكان بنفسه تاركاً من جاء معه؛ ليستوطن المكان مما زاد من نسبة النصيرية مقارنة بالإسماعيلية، الذين سيصبحون مع الوقت أقل عدداً من النصيريين، وموضع الهجوم عليهم، واجتثاثهم حتى العصر الحديث.

كانت العقلية النصيرية غالباً تساير الظروف، فقد تخضع للإسماعيليين، أو تنقلب عليهم إذا وجدت الفرصة، وقد تصبح صليبية إذا استدعى الأمر

استيطان النصيريين في جبال الساحل

خلال مرحلة استيطان النصيريين في جبال الساحل، خلال القرون الوسطى، ليس من الممكن تحديد أعدادهم، ولكن يمكن تحديد أماكن تواجدهم، فهم ظهروا في المناطق الداخلية أولاً حول حلب، ومنها انتشروا إلى سرمين، وسلمية، وحماة، وحمص، ومنها تمددوا نحو السفوح الشرقية للجبال الساحلية وفي المرتفعات حول طرطوس وصافيتا، أما الجبال شمال اللاذقية، فلن يظهر لهم انتشار فيها حتى العصر المملوكي. وبالنسبة للمدن الساحلية الرئيسية: اللاذقية، جبلة، بانياس، فقد بقيت حتى فترة قريبة ذات غالبية سكانية من المسلمين وبعض المسيحيين، ولم تكن أماكن استيطان للعلويين إلّا في التاريخ المعاصر، من خلال عملية تغيير التركيبة السكانية لهذه المدن في فترة ما بعد سيطرة العلويين على الحكم في سوريا.

جرائم الدمار البيئي

الحرب والحرائق في غابات اللاذقية

بقلم: نوّار الماغوط

شعر السوريون بالحزن على واحدة من أكثر الأحداث مأساوية في تاريخ البلاد المعاصر... فالثورة التي بدأت سلمية بمطالب شعبية عادلة في عام 2011، انتهت بحرب شاملة ضد الحجر والبشر والشجر.

كانت لهذه "الحرب القذرة" التي شنها النظام على شعبه المطالب بالحرية والكرامة آثار مدمرة على البلاد وسكانها، فقد قُتل ما يقرب من 600 ألف شخص، وأُجبر 12 مليون شخص (أكثر من نصف سكان، ما قبل الحرب) على ترك منازلهم. بالإضافة إلى ذلك، شهدت سوريا انخفاضاً تراكمياً في الناتج المحلي الإجمالي يقدر بـ324,5 مليار دولار؛ حيث أصبح الناتج السنوي للاقتصاد أقل بنسبة 54 في المائة، عما كان عليه في عام 2010. وتفاقمت أنماط انعدام الأمن البشري خلال الحرب، مما أدى إلى تفاقم التفاوتات المعيشية، وتهديد سبل عيش السكان غير المستقرين، وقطع الملايين عن مجتمعاتهم والخدمات الاجتماعية، وقد تفاقمت هذه الآثار؛ بسبب الفساد المتزايد، ونهب شبكات الربح الجديدة التي رافقت اقتصاد الحرب، مما أدى إلى ترسيخ الهيمنة السياسية والاقتصادية، من قبل الأجهزة العسكرية والأمنية، إلى جانب رجال الأعمال المحسوبين على رجالات الحكم.

التدهور البيئي في سوريا

بينما أودت الحرب السورية بحياة 600 ألف شخص، وشردت 12 مليوناً، وسحقت اقتصاد البلاد، غالباً ما يتم تجاهل مقياس واحد، عند تقييم الخسائر البشرية الناجمة عن الصراع في سوريا: تدهور الموارد الطبيعية، وعلى نطاق أوسع تكلفة التدهور البيئي. لا يتوقف هذا التدهور عند تدهور العالم الطبيعي فقط، بل يشمل أيضاً التلوث والبنية التحتية المدمرة للصرف الصحي التي خلفتها سنوات من القصف الجوي الذي احتكره نظام الأسد وحلفاؤه.

التأثيرات البيئية في اللاذقية

لا شك أن الحرب السورية التي قتلت البشر، وتسببت في نزوح الملايين، امتدت آثارها إلى البيئة والمناخ. في سوريا، وخصوصاً في اللاذقية، كانت بعض المشاكل البيئية موجودة قبل الحرب، مثل ردم الشواطئ، وانحسار المسطحات الخضراء، واجتثاث الغابات، وتلوث الهواء والتربة، ونضوب المياه الجوفية، وتلوث المياه السطحية، وسوء إدارة النفايات، وتراجع التنوع الحيوي، وتراجع الإنتاج الزراعي، لكن هذه المشاكل تفاقمت وتزايدت خلال الحرب. تسببت الحرب في تلوث كبير؛ نتيجة لاستهداف البنية التحتية الحيوية وتدميرها، بما في ذلك منشآت النفط والصرف الصحي. أدى ذلك إلى تسرب النفط والمواد الكيميائية إلى المياه والتربة، مما شكل خطراً كبيراً على الصحة العامة والبيئة البحرية. حولت الحرب السورية شرق المتوسط إلى "نقطة اشتعال للتلوث".

التسربات النفطية والتلوث البحري

أحد أكبر مصادر التلوث كان التسربات النفطية من محطات الطاقة والمصافي. في عام 2021، حدث تسرب نفطي كبير من محطة بانياس الحرارية على الساحل السوري، مما أدى إلى تلوث واسع النطاق للبحر الأبيض المتوسط، وتأثير سلبي على النظم البيئية البحرية، والمجتمعات الساحلية في اللاذقية. قامت الدراسة التي أجرتها منظمة PAX الهولندية لبناء السلام، بتحليل صور الأقمار الصناعية؛ لتقييم الأضرار التي لحقت بالمياه، قبالة ميناء بانياس، حيث أدى تسرب نفط إلى تسرب آلاف الأطنان من النفط إلى البحر الأبيض المتوسط. هذه التسربات النفطية، بالإضافة إلى النفايات الصناعية والطبية غير المعالجة، زادت من مستويات التلوث البحري والجوي، مما عرّض السكان المحليين لمخاطر صحية خطيرة.

انتشار المصافي البدائية

كما أدت الحرب إلى انتشار المصافي البدائية في المناطق غير الخاضعة لسيطرة الحكومة، حيث استُخدمت طرق تكرير غير آمنة وغير صحية، مما أسفر عن انبعاثات سامة، وتلوث الأراضي، والمياه الجوفية، بالإضافة إلى ذلك، تسببت التفجيرات والمعارك في توليد كميات هائلة من الركام والنفايات التي تحتوي على مواد كيميائية ومعادن ثقيلة، مما يسهم في تلوث البيئة، وتفاقم الأوضاع الصحية للسكان.

حرائق الغابات في اللاذقية

من أبرز الكوارث البيئية التي شهدتها اللاذقية هي الحرائق في غاباتها. في يوم 3 نوفمبر 2016، اندلعَ خمسة عشر حريقاً في جبال ريف اللاذقية في وقت واحد، كان أكبرها في محيط قرية إبراهيم، في منطقة جبال القرداحة بالقرب من اللاذقية، وقد أتى الحريق، ولأكثر من أسبوع، على مئات هكتارات الأشجار من المساحة الإجمالية البالغة 35 ألف هكتار، من الأراضي الزراعية المشجرة بالزيتون، والسنديان، والخرنوب، والصنوبريات.

ويعتبر هذا الحريق أسوأ ما حدث منذ عقود، وهذه الحرائق جميعها سُجلت ضد فاعل مجهول، على الرغم من أن جهاز إطفاء اللاذقية كان يمكنه السيطرة على الحرائق، وفقاً لحديث عمال الإطفاء الذين شاركوا في إطفائها، إلا أن اندلاعها في وقت واحد مساءً، جعل من المستحيل السيطرة عليها ووقف امتدادها. السبب الذي لم يستطع السكان المحليون قوله، هو أن هذه الحرائق قامت بفعل فاعل؛ بغرض استثمار الغابات المتفحمة عبر تجارة تسيطر عليها عصابات تريد تحويل المناطق المحروقة إلى مناطق استثمار عقاري في المستقبل، حيث يسهل عليهم كثيراً امتلاكها، عبر المزايدات الرسمية التي تطرحها مديريات الزراعة بشكل رسمي، عبر شركات تتخفى وراء أسماء غير معروفة. وفق تقرير لمديرية زراعة اللاذقية، التهمت الحرائق عبر سنوات الحرب بين 2010-2018 أكثر من ربع مساحة الغابات في البلاد، فوصل عددها إلى 2000 حريق مسجل رسمياً، بمساحة إجمالية بلغت 103 ألف هكتار محروق، كان نصيب الساحل منها فوق 800 حريق، بعض منها ناتج عن العمليات العسكرية، كما حدث في مناطق البسيط التي خسرت13ألفهكتارعام2013.كماانتشرتأيضاًفيالسنواتالأخيرة في الساحل السوري ظاهرة المفاحم "تمويت" للأشجار، كوسيلة لكسب الرزق والعيش، وهي تجارة تدر الملايين لمن يتحكمون بها، مستخدمين سطوتهم ونفوذهم، لاستعباد البشر وحرق الشجر، وحسب ناشطين أنه توجد أعداد غفيرة من الفقراء والمعدمين، يقدّر عددهم بالآلاف، يقلبون البراري والأحراش في الساحل السوري، يقطعون الأشجار وأغصانها، لبيعها إلى مفاحم تحوّل الحطب إلى فحم، سواء كانت مرخّصة أو غير مرخصة، ومعظمها يعود لمتنفذين، أو ضباط، أو قادة ميليشيات.

أزمة مكبات النفايات

كما تعد مشكلة مكبات النفايات من أخطر المشاكل البيئية في اللاذقية، ويقع مكب النفايات في البصة، على بعد 10 كيلومترات من اللاذقية، ويمتد على مساحة 100 هكتار، وتعتبر هذه المشكلة مستمرة منذ عقود، حيث فشلت السلطات في تقديم حلول حقيقية لها. تنتشر النفايات في الموقع على ارتفاع يصل إلى 3 أمتار عن مستوى الأرض، ويقدر إجمالي كمية النفايات غير المطمورة بحوالي مليون طن. يقوم بعض النازحين من مناطق خارج اللاذقية بنبش القمامة بحثاً عن مواد يمكن إعادة تدويرها، والاستفادة منها، أو بيعها إلى أحد التجار، وهذه الظاهرة منتشرة في كل أنحاء سوريا، في ظل الفقر المدقع لملايين السوريين.كما يقوم بعض الأشخاص بافتعال الحرائق في المكب، والتي تطال النفايات غير المطمورة، وتقدر بآلاف الأطنان، مما ينتج عنه انبعاث الغازات السامة، مثل غاز الميثان، وأول أكسيد الكربون. يقول سكان القرية: إن بعض المقيمين في جوار المكب الذين لديهم أعداد من الأغنام، ترعى في المكان ملتهمةً البقايا العضوية، وما يجري بعد انتهاء عملية النبش، هو حرق النفايات العضوية القديمة، بهدف توسيع المساحات الممكنة لإفراغ مزيد من النفايات، ولكن السكان يؤكدون أن الإجراءات الحكومية غير كافية؛ بسبب فساد مجلس المدينة، وقيادة الشرطة، ومن معهم من العاملين في الدولة، وقبولهم للرشوة.

تُظهر الحرب السورية بأبعادها المختلفة، كيف يمكن أن تؤدي النزاعات إلى تدهور بيئي خطير، يؤثر على حياة الناس وصحتهم على المدى البعيد. تتطلب معالجة هذه المشاكل البيئية جهوداً متكاملة، تشمل إعادة تأهيل البنية التحتية، وتنظيف المناطق المتضررة، ومكافحة الفساد، وضمان إدارة سليمة للنفايات، للحفاظ على بيئة صحية، ومستدامة للأجيال القادمة.

*** وفق تقرير لمديرية زراعة اللاذقية، التهمت الحرائق بين عامي 2010-2018 أكثر من ربع مساحة الغابات في البلاد، فوصل عددها إلى 2000 حريق مسجل رسمياً، بمساحة إجمالية بلغت 103 ألف هكتار محروق، كان نصيب الساحل منها فوق 800 حريق**

*** هذه الحرائق قامت بفعل فاعل؛ بغرض استثمار الغابات المتفحمة، عبر تجارة تسيطر عليها عصابات، تريد تحويل المناطق المحروقة إلى مناطق استثمار عقاري في المستقبل**

أباً عن جد

بقلم: د. حسام عتال

يا إلهي... هذا ما أتيت هنا لأجله:

اللاذقية في بيت الموسيقار محمود عجان

في سبعينيات القرن الماضي، كان الطريق بين جبلة واللاذقية طريقاً واحداً ذا اتجاهين، يفصل بينهما خط أبيض كالح؛ بسبب عجلات السيارات، وعوامل الطبيعة، وإهمال الصيانة. مع بزوغ الشمس يمتلئ الطريق بالمركبات الخاصة، وسيارات التكسي، والميكروباصات ناقلة الموظفين، والعمال والناس الذين يذهبون للعمل، أو لقضاء معاملة، أو شراء حاجيات.

لكي يتجاوز سائق الميكروباص العربة أمامه، كان عليه أن يقوم بحركة بهلوانية، حيث تميل العربة بحدة ذات الشمال، بينما السائق يضغط بكل قوة رجله على دوّاسة البنزين، وبكل قوة كفه على البوق القابع في منتصف المقود، ثم يميل ذات اليمين بنفس الحدة، حتى يعود لمساره المستقيم في الطرف المخصص من الطريق؛ لذلك كنت أفضل الوقوف في الممشى بين المقاعد؛ لأني كنت صغير الجسم، ولا أتحمل ضغط وزن جسم الراكب جانبي في المقعد، إن مال عليّ مع كل مناورة من مناورات السائق. وبين الفينة والأخرى تتوقف العربة بإشارة من معلّم مدرسة ابتدائية، لإنزاله على مفرق طريق الضيعة التي يدرّس فيها، أو لالتقاط سيدة بغطاء رأس مبرقش، رفعت له يدها، وهي في طريقها للمدينة، لشراء قطع من القماش، تحيكها ملابس لأولادها الصغار. في مقدمة الباص إلى جانب صورة سعاد حسني، هناك راديو مع كاسيت قد وضع فيه السائق شريطاً لذياب مشهور، وهو يصدح "يابو اردين يابو اردانا..".

بناء أبيض في الصليبة

وهكذا حتى نصل ساحة الشيخ ضاهر بعد ساعة ونيف، وأترجل مسرعاً خلال السوق القديم، وبعده شارع 8 آذار حتى أصل الصليبية. هناك بناء أبيض من ثلاث شقق، واجهتها زجاجية تطل على البحر. في الطابق الثاني بيت عائلة زوجة خالي، متوّجة بعميدها الأستاذ الموسيقار محمود عجان. أدخل الشقة من الردهة التي فيها بيانو عليه تمثالان، أحدهما لرأس بيتهوفن بعينيه الثاقبتين، وشعره المنكوش، والآخر لرأس الأستاذ محمود نفسه بوجنتيه العريضتين، وشعره المنكوش أكثر من رفيقه القابع حده.

من المطبخ تفوح رائحة السكر والفانيليا، إنه الكاتو في الفرن، الحلوى التي اشتهرت به زوجة الأستاذ محمود، والتي حتى اليوم لم أذق ما يضاهيها لذة. في غرفة الصالون أجد خالي على قمة درجات السلّم، بيده فرشاة الألوان، وهو يرسم جدارية من أساطير يونانية على الحائط. على الطاولة في زاوية الغرفة الكتاب الذي يعمل خالي على نشره، ويصر على خطّ صفحاته بقلمه الخاص.

نصل ساحة الشيخ ضاهر بعد ساعة ونيف، وأترجل مسرعاً خلال السوق القديم، وبعده شارع 8 آذار حتى أصل الصليبية. هناك بناء أبيض من ثلاث شقق، واجهتها تطل على البحر.

في غرفة الصالون أجد خالي على قمة درجات السلّم، بيده فرشاة الألوان، وهو يرسم جدارية من أساطير يونانية على الحائط. على الطاولة في زاوية الغرفة الكتاب الذي يعمل خالي على نشره

في الشرفة الملحقة، بابها مفتوح لإدخال نسيم البحر الطري، هناك أقفاص طيور الكناري، العصافير فيها نائمة، فقد بدأت الشمس بالارتفاع في السماء. تبدأ ابنة خالي الكبري بعزف سوناتا موتسارت رقم 11على البيانو. يا إلهي، هذا ما أتيت هنا لأجله: الكتب، والرسم، والموسيقى ههه، والكاتو!

إنها حياته كلها

"تعال حسام تعال عندي" قال لي الأستاذ محمود خارجاً من غرفة نومه، ما زال في روب الديشمبر الكحلي. جلست جانبه على الأريكة، فأمسك يدي بلطف، "هات لنشوف ما هي أخبارك؟". أخبرته عن حياتي في دمشق، وعن مدرستي وأصدقائي، وهو منصت باهتمام. "ووالديك؟"، سألني. "هم في حماة، في زيارة لأصدقائهم من عائلة الشيشكلي، لكني لم أذهب معهم". "لا يهمك"، قال لي ملوّحاً بيده: "هذا (شي شكلي) فقط!".

ضحكت مقتصداً، عارفاً أن هذه لن تكون الطرفة الوحيدة التي سيأتي بها، ثم قلت له: "لم أذهب معهم؛ لأني أفضل أن أمضي الصيف في جبلة، عند بيت جدي، ولكي أذهب للسباحة في البحر كل يوم". ارتفع حاجباه، وقال: "أنت محظوظ، أنا ابن اللاذقية، ولا أعرف السباحة". "ممكن أن أعلمك"، قلت له وأنا أغمزه: "لكن فقط إذا علمتني الموسيقى". توقدت عيناه، وقال:

"صفقة مربحة لي، كيف لنا أن نبدأ، سيد درويش أو شيخ إمام أو زكريا أحمد؟ هل تدري أن موسيقى سيد درويش أكثر دقة في تأليفها من موسيقى موتسارت، وأجمل أيضاً، اسمع...".

استمرّ في الكلام عن الموسيقى، كان واضحاً لي أن الموضوع بالنسبة له، وأكثر كلامه عن الموسيقى، إنها حياته كلها، كيانه، جسده وروحه.

أغمضت عينيّ منصتاً، يا إلهي، هذا أكثر بكثير، مما أتيت هنا لأجله، أكثر حتى من طعم الكاتو!

محمود عجان، رائد الموسيقا في مدينة اللاذقية، ولد عام 1916، وأحب الموسيقى من صغره، فعلّم نفسه عزف الكمان والعود، وبرع فيها. مع أخيه عبد القادر أسس نادي الموسيقى في اللاذقية، وكان له فضل في تثقيف وتعليم جيل جديد الموسيقا، من أولى أعماله لحن موسيقى فيلم "مرفأ اللاذقية"، ثم قام بتمثيل دور ثانوي في فيلم "عمالقة البحار" الذي أخرجه السيد بدير عن جول جمال والعدوان الثلاثي على مصر عام 1960، مثبتاً أنه متعدد المواهب.

رسالة بانياس

في ٢١ لمراسلنا الخاص

من اللاذقية

آنس الثغر من اللاذقية حضرة الموسيقار العبقري الاستاذ محمود عجان لتمضية عدة ايام في ربوع بانياس الجميلة ترويحا للنفس وحل ضيفا على شقيقه الاستاذ عبد القادر عجان رئيس المكتب العقاري فاهلا بالفن والادب وعلى الرحب والسعة .وقد دعاه احد الشباب الى منزله كما دعا رهطا من الوجهاء والشباب ومراسل هذه الجريدة لتمضية السهرة وهناك عزف الاستاذ محمود على « الكمان » فلعب بالقلوب والعواطف وسحر الحاضرين . وعزف الاستاذ عبد القادر على « عوده » فاجاد وابدع وانشد الحضور حضرة الشاب الفنان السيد فيصل عابدين مطرب بانياس بعض الاغاني بصوته العذب فكان لها الوقع الحسن . وقد غادرنا الاستاذ العجان الى لاذقية العرب بعد ان قضى عندنا عدة ايام جميله كان خلالها موضع الحفاوة والاكرام رافقه السلامة

جريدة (الجزيرة) الدمشقية 23 / 12 / 1935

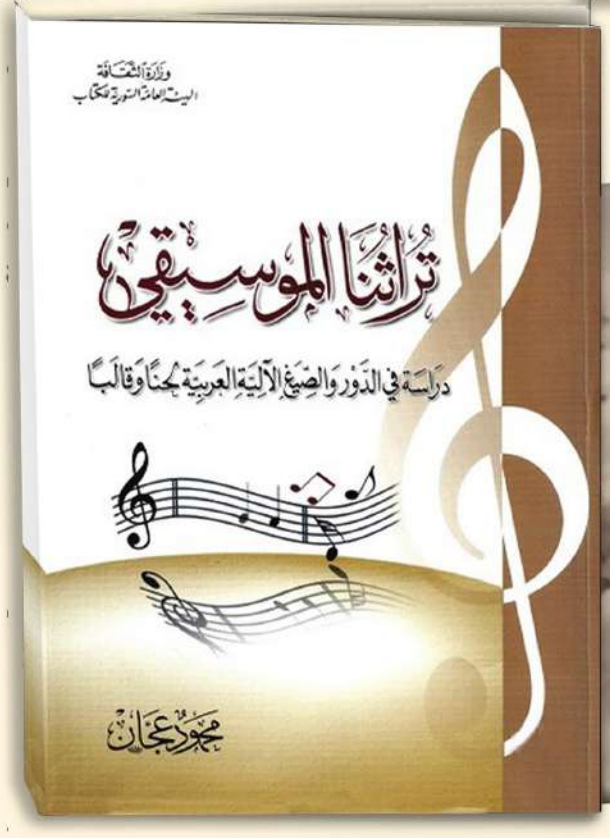

من وحي أبي العلاء

عمل مدرساً للموسيقي في دور المعلمين والمعلمات، واستمر في تطوير خبرته بالموسيقا العربية، مضيفاً إليها الغربية الكلاسيكية، حتى أتى عام 1957، حيث دُعي إلى مهرجان الشبيبة العالمي في موسكو، بمناسبة ذكرى الفيلسوف والشاعر أبي العلاء المعرّي في معهد تشايكوفسكي للموسيقا. هناك قدّم مقطوعة موسيقية، ألّفها على آلة الكمان، وأسماها "من وحي أبي العلاء"، فنالت استحساناً كبيراً، ودعته إثرها إدارة معهد الدراسات الشرقية إلى حفل تكريم خاص، مُنح فيه وساماً خاصاً، وفي اليوم التالي ظهرت صورته مع أخباره في الصحف السوفييتية.

هذا الحضور المتميز في موسكو، كان بداية لعدد كبير من الجوائز والميداليات والتقديرات، فقد كان يحصل على المرتبة الأولى في المباريات الموسيقية، مثل مباريات وزارة الثقافة التي منحته أول ميدالية في العام 1959، بعدها بعشر سنوات أعطته الوزارة ميدالية أخرى، بعد فوز فرقته بالجائزة الأولى في مباريات لغناء وتلحين الموشحات. أخيراً في عام 1979 قامت وزارة الثقافة بتصوير فيلم وثائقي عن حياته وأعماله الموسيقية. بعدها عكف على دراسة التراث الموسيقي العربي، صنفه وفنّده ووثقه، وأصدر في عام 1990 كتابه الموسيقي الأول، تحت عنوان "تراثنا الموسيقي"، وهو عبارة عن دراسة في الدور، والصيغ الآلية العربية لحناً وتاريخاً وقلباً وقالباً، وبعد ذلك عمل على تأليف كتاب عن الإيقاع وفلسفته، بالإضافة إلى كتاب آخر عن الموسيقا النظرية، ومواضيع أخرى عديدة، تتعلق بالموسيقا بأشكالها وأنواعها.

رائد مجهول وصاحب نكتة

جاهد الأستاذ محمود طوال حياته، في سبيل نشر الموسيقا والثقافة الفنية في جميع المجالات، ولم يتقاضَ أي أجر مادي عن ذلك؛ لأن هدفه الدائم كان نشر حب الموسيقى وثقافتها على مستوى العامة والمختصين. يقول الباحث والمؤلف الراحل "جبرائيل سعادة" في كتابه متحدثاً عن الأستاذ محمود: "ولد محمود عجان في عائلة تضم عدداً كبيراً من هواة الموسيقا، وقد هام بهذا الفن منذ حداثته، وكان صغيراً جداً عندما بدأ يعزف على الكمان والعود، وفي سن الرابعة عشرة عزف أمام "سامي الشوا"، فانتزع إعجاب هذا الفنان المشهور، وكان عليه أن ينمّي معلوماته الموسيقية بنفسه، فعكف على المطالعة والاتصال بالموسيقيين المشهورين خارج اللاذقية، وما لبث حتى

في معهد تشايكوفسكي للموسيقا بموسكو قدّم مقطوعة موسيقية، ألّفها على آلة الكمان، وأسماها "من وحي أبي العلاء"، فنالت استحساناً كبيراً، ودعته إدارة معهد الدراسات الشرقية إلى حفل تكريم خاص، مُنح فيه وساماً خاصاً

في بعض الصور التذكارية له كانت واحدة مع الموسيقار محمد القصبجي، وأخرى يكرم في روسيا، ويظهر فيها أنه يبكي.. ولما سألته: لماذا تبكي يا أستاذ؟ أجاب: "لأنني أكرّم في بلد غير بلدي"

اضطلع بقواعد الموسيقا العربية والغربية وتاريخهما، وإلى جانب ذلك كان يلحن قطعاً موسيقية وأناشيد عزف معظمها، ولكن مع الأسف لم تنشر أية قطعة من هذه المؤلفات. أما مؤلفاته الموسيقية، فأكثر من أن تحصى، خص فيها قوالب التراث من سماعيات ولونغا أغلب أعماله، كذلك اهتم بالأناشيد الوطنية والقومية، ولحّن منها عدداً وفيراً، وعنده غير ذلك مسرحية غنائية ومقطوعات مختلفة". ويضيف: "وهو حلو الحديث، لطيف في معاملته للناس، وهو عندما يبدأ حديث الموسيقا، تراه وكأنه يغرف من بحر لا يتوقف، ولا يستريح ولا يهادن في علم يعرفه تمام المعرفة، وقد نأى بفنه من أن ينحدر إلى مستوى الملاهي، فالموسيقا بنظره لها محراب خاص، لا يجوز لها أن تغادره إلا لمعابد الذين يتذوقونها، ويفهمونها، ويجيدون الاستماع إليها، وهو في هذا يفرق بين الفن الموسيقي الراقي، والآخر الذي لا يحمل من الفن سوى الاسم".

صاحب الفضل الموسيقي على اللاذقية

أما الإعلامي عمر شريقي، فيقول عن الأستاذ محمود: "يشرفني التحدث عن الباحث الموسيقي الراحل محمود عجان، كما تشرفت بإجراء عدة حوارات صحفية معه، وحضور جلسات فنية في بيته بمشروع الصليبة، وسط حضور عدد كبير من فناني العالم العربي، وآخر جلسة حضرتها كانت بحضور الفنان صفوان بهلوان، وأقول عن عجان: لكل فن رائد ولكل نهضة متقدم يتقدمها، ويسير أمامها لتصل إلى غايتها، وعلى هذا الرأي فإن الموسيقا العربية لم تعرف بشكلها الحاضر، ولم تصل إلى هذه الدرجة التي وصلت إليها الآن، إلا بعد أن وجد لها رواد شقوا الطريق أمامها، ومهدوا لها سبيل السير، فكان محمود عجان النابغة هو صاحب الفضل في إدخال الموسيقا إلى اللاذقية، وفي بعض الصور التذكارية له كانت واحدة مع الموسيقار محمد القصبجي، وأخرى يكرم في روسيا، ويظهر فيها أنه يبكي، ولما سألته: لماذا تبكي يا أستاذ؟ أجاب: "لأنني أكرّم في بلد غير بلدي". لقد كان رائداً مجهولاً في ميدان الموسيقا وصاحب نكتة، باختصار كان معجوناً بالموسيقا رحمه الله".

ترك الأستاذ محمود بصمة خالدة، سيذكره فيها كل المهتمين بالفن والموسيقا في اللاذقية وسوريا. عاش حياة غنية بالموسيقى، مليئة بالنشاطات الاجتماعية، عالية بالأخلاق والفضيلة. فارقنا إلى جوار ربه في عام 2006، بعد أن عاش ما يقارب قرناً من العمل المتواصل المعطاء، رحمه الله وأحسن مثواه.

رحلة

بقلم: د. فطيم دناور

بعيداً عن الصورة النمطية للأذقية:

في مَشْقيتا وبين أنفاس بحيراتها

ليس مصادفةً أن يكون الرقم سبعة منظِّماً للظواهر الكونية الكبرى، فالكواكب سبعة، والسماوات سبع، والأرضون سبع، والأيام سبعة... وليس مصادفة أن يكون العدد ذاته هو المنظم لكثير من تضاريس الجغرافيا السورية، فروافد بردى سبعة، وأبواب دمشق سبعة، وبحيرات حلب سبع... ولا تخرج اللاذقية درة الخارطة السورية عن هذه القاعدة، ففي جبالها تترقرق البحيرات السبع في منطقة "مشقيتا" الساحرة.

عندما شرعت بكتابة هذا المقال، تجنبت البحث في جوجل؛ حتى يكون كل ما أكتبه، مما حفظته الذاكرة من انطباعات وصور، وغير خافٍ أن الصورة النمطية للاذقية، تتمحور في تلك المدينة التي تتمدد على شاطئ البحر، يقصدها المصطافون، وهواة السباحة، وركوب الزوارق، وهو ما تحتفظ به ذاكرتي، بعد رحلة مدرسية اشتركت فيها، وأنا في الصف الرابع الابتدائي، وكان ذلك أول، وآخر عهدي بهذه المدينة وريفها حتى 2008، إذ قصدتها في رحلة مع الأسرة، سرنا فيها على هدى تدوينة كتبها مواطن خليجي، وثّق خط سيره في المحافظة توثيقاً دقيقاً، شمل الطرقات، والمعالم والتضاريس، وحتى الأسعار.

أقمنا في كسب البديعة، ومنها انطلقنا باتجاه الجنوب متبعين لوحات الطرقات، وما لدينا من معلومات من المدوّنة إياها، في تلك الطرقات لا يجرؤ الضجر على الاقتراب من شعورك؛ فتارة يغشي المكان سحب من الضباب البارد (في وقت كانت أغلب مناطق سورية تلظّى من شدة الحرّ)، وتارة يتكشف الضباب، فيظهر وادٍ مكسوّ بأشجار البلوط والصنوبر الطبيعي، وقد تبدو بحيرة هنا أو هناك، وعلى جانبي الطريق يقف بائعون قرويون يعرضون ما لذّ وطاب من فاكهة تلك المناطق العضوية الطازجة، فرمانٌ وتينٌ وتوتٌ، وسفرجَل وعنب... وتمرُّ بين الفينة والأخرى بقروية جبلية تقف على تنورها الملتهب، تفوح منه رائحة المناقيش، والخبز المحمّر (خبز الفليفلة)، فيداهم الجميع جوعٌ وشرهٌ إلى ذلك الخبز الأثير عند السوريين.

ثم تنغمس المركبة في جنان لا يحيط بها تصورٌ، إلّا في عالَم الخيال الجامح، في "السريالية" يعمد الفنان إلى الغوص في متاهات الخيال، أنت هنا في قلب تلك المتاهات، ولكنها متاهاتٌ طبيعيةٌ تشعل حواسك كلها، حتى تنتهي بك إلى شواطئ مياه عذبة، لم تلوثها يد البشر، قيل لنا هذه البحيرات السبع، وقفنا نتأمل كيف رسمت الأشجار والأعشاب، ومسارات المشي لوحاتٍ طبيعيةً، لا يمكن للوحة فنية أن تضاهي جمالها رغم أنف "هيغل".

كّل شبر في ذلك المكان يدعوك للتأمل، الخضرة والطرق الترابية، والمساحات المائية، لا خلل ولا نقص، بل كل شيء مرسوم بإتقان، يخطفك من حاضرك، ويأخذ بيدك في نزهة روحية في تفاصيل يتشبث بها الانتباه، ولا يتركها ثانية واحدة، بل يعمل بأقصى طاقاته على تأمل ذلك السحر. أنت هنا بين يدَي صاحبة الجلالة سيدة الجمال الأولى (الطبيعة)!

طفنا حول أكثر من ضلع من الأضلع المائية، حتى وجدنا طريقاً للقوارب، فركبنا أحدها، مع شاب ريفي موشوم العضلات، يرتدي ثياباً صيفية فاقعة الألوان، يرحب بك بلهجته الجبلية، ثم ينطلق بقاربه انطلاقة حماسية، على أنغام الأغاني الجبلية المنبعثة من مكبرات الصوت، وقد يحصل تصادم بين أصوات الأغاني الصادرة من مكبرات قوارب أخرى، حين تقترب من بعضها بعض. مررنا على شاطئ منساب، يطفو عليه قارب، صُمّم تصميماً فينيقياً بديعاً، قال لنا الشاب إنهم صوّروا به مسلسلاً فانتازياً هنا، وكانوا يستعملون هذا القارب، وقارباً آخر، بالإضافة إلى أكواخ من القش كانوا يستخدمونها للغرض ذاته، فرح الأطفال بهذا، وكانوا يفرحون حين نمر بموقع تصوير لمسلسل ما، يشعرون بالتفاعل مع المسلسل وشخوصه، وكانت خيام الشبان المصطافين قماشية، أو من مواد طبيعية ممتدة على مسافة من شواطئ البحيرات.

ظلت أعيننا ترقب هذه المشاهد، انغمسنا في المسطحات المائية، وراح القارب يجوب بنا في عوالم بعيدة، في أحضان طبيعة منعزلة حانية وهادئة، تهمس لك، فيما يشبه القول: أنت هنا في الجنّة. في تلك المنعطفات الساحرة، غاب صوت الأغاني رغم صخبها، وصمت الجميع، حتى الأطفال، فدخلت في لحظات اتصال مع الطبيعة، كما يحدث لشاعر في لحظات الإلهام، أو كما يحصل في لحظات الارتقاء في مسالك التجلّي عند الصوفي، أنا هنا في قلب الوجود السيّال الذي خبرنا به ابن سبعين، كل شيء يرتّل، ويشدو بأصوات تصل القلب، من دون أن تمرّ بالآذان، تلقّ حدسيّ يتجاوز حدود الجسد، ويحلق بالروح حتى تلامس حواشي الغيوم.

هل هذا خشوعُ الدّهشة أمام الرؤية البكر التي لم يعطلها الاعتياد، الهموم والآلام والخيبات، وكّل ما يعكر النّفس والذّهن مقيدة في مكان بعيد، والذهن في صفاء وطهر، كأنه خلق للتّو، في هذا المكان تهيم روحك في عوالم لا حدود لها، ولا ألوان، ولا ملامح، تتجاوب مع أرواح تملأ المكان تحس بها، وتشعر بألفتها وحنوّها.

كان القارب يقطع بحيرة تلو الأخرى، تماماً كما نشاهد في عالم الرسوم المتحركة، فتبدو كأنها كواكب مائية متصلة، لا يفصل بينها حد... بقيت على هذه الحال حتى بدت النقطة التي انطلقنا منها، فقطع صوت الشاب اتصالي الروحي بالقول: "وصلنا، الحمد لله على السلامة".

قيل: إن الذاكرة تنسى الأحداث لكنها لا تنسى الانطباعات، ولذلك يقرُّ المبدعون بأنَّ إبداعاتهم ترجع لحوادث جرت قبل سنين، وبمثل ذلك، فإن الانطباع الروحي والخيالي لتلك الرحلة -التي قيل لنا في ما بعد إنها استغرقت خمساً وأربعين دقيقة- حفر بإحساساتي كلحن أوغاريتي خالد، بل أكثر من ذلك، بتُّ إذا تجوّلت في منطقة جبلية أو مائية في مكان من العالم، تحضر في روعي مشقيتا، وبحيراتها السبع، فهل يا تُرى يكتب لنا الزمان عودة؟ وإن عدنا، هل تحظى المراكب بسائق مركب مدرب على مثل هذه الرحلات، ومعه عازف آلة موسيقية تناسب المكان، أو يشغل موسيقى هادئة، تساعد الراكب على الاستجمام الروحي، وهل تحظى مشقيتا بوحدات سكنية يبيت فيها الزائرون، وهل تُنظّم طرقها، وتُعبّد، فتسهل حركة المصطافين، وهل يُوفّر لها أدلاء سياحيون يرشدون الزائرين، ويحكون لهم تاريخ تلك البقعة؟ هل يأتي يوم، وتُستثمَر تلك الجنان البكر، فتكون إحدى مناطق الجذب للسياحة، كما في الدول التي باتت مثل تلك المناطق علامات تميزها بين الدول؟

كتب ودراسات توثيقية في تاريخ اللاذقية

مجموعة من عناوين الكتب والدراسات التي صدرت عن اللاذقية وتاريخها وآثارها وعمرانها منذ ستينات القرن العشرين

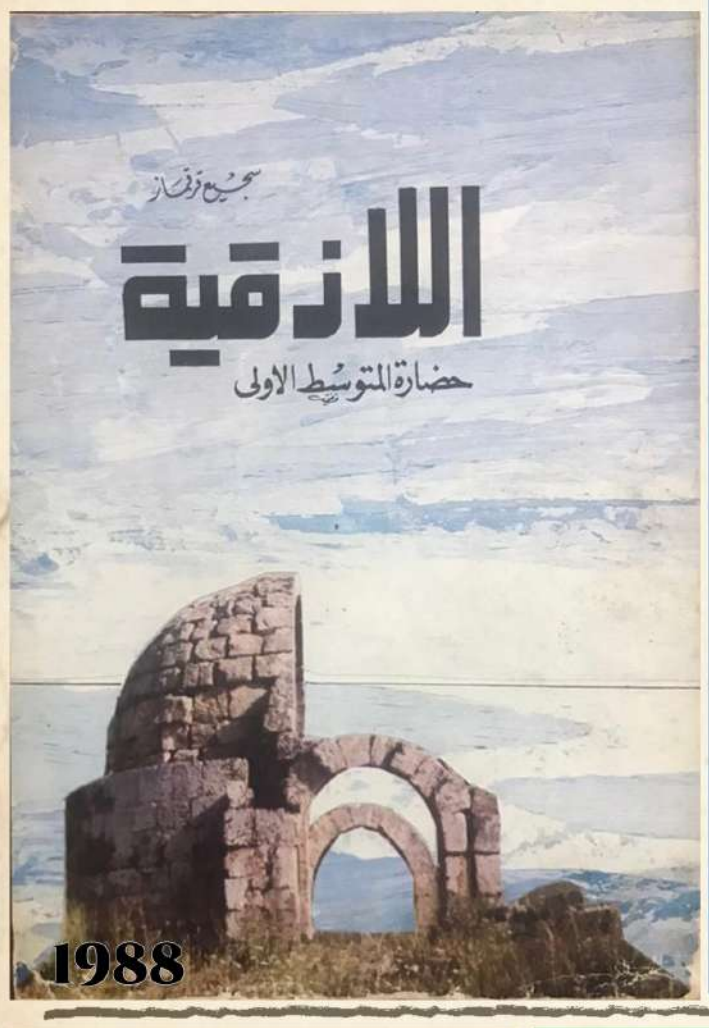

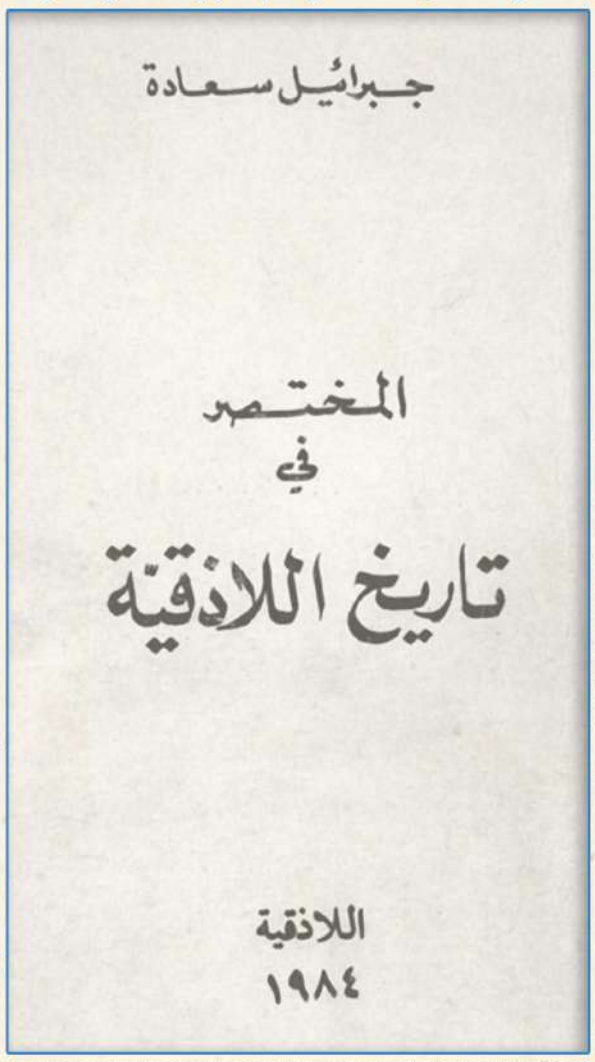

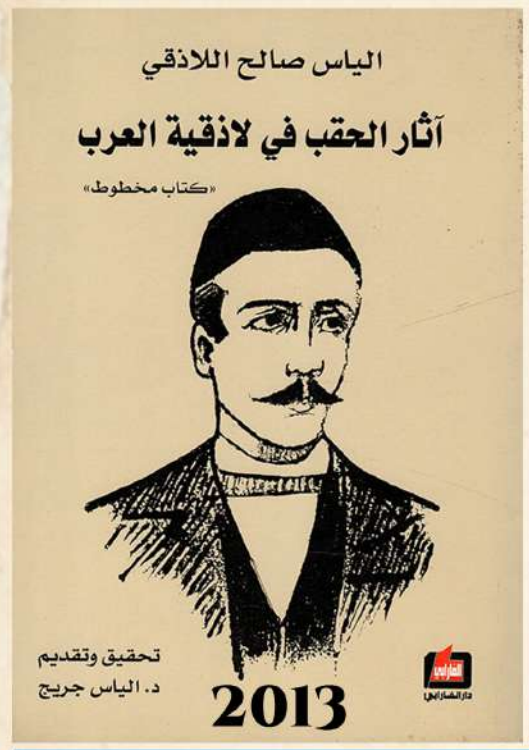

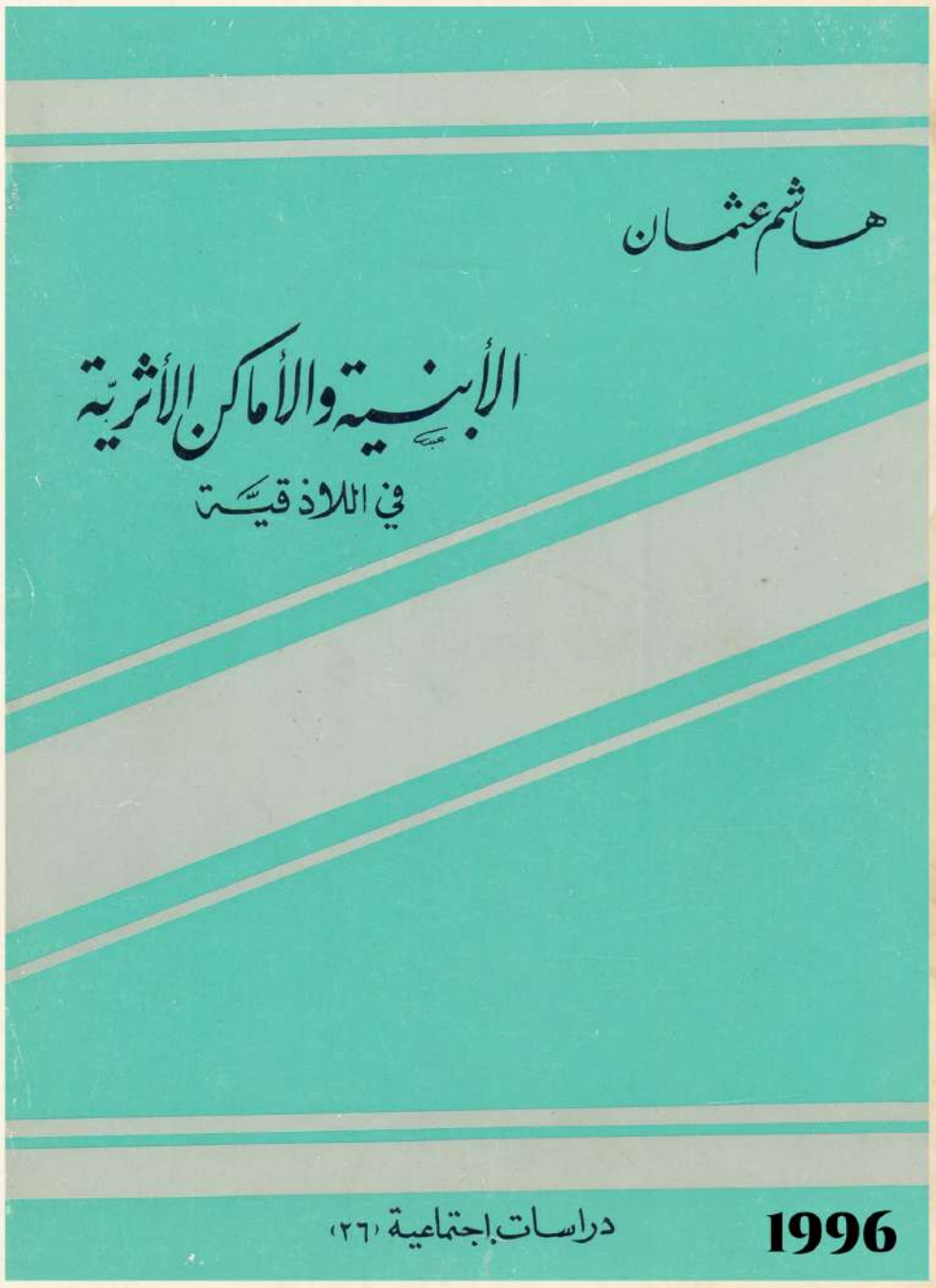

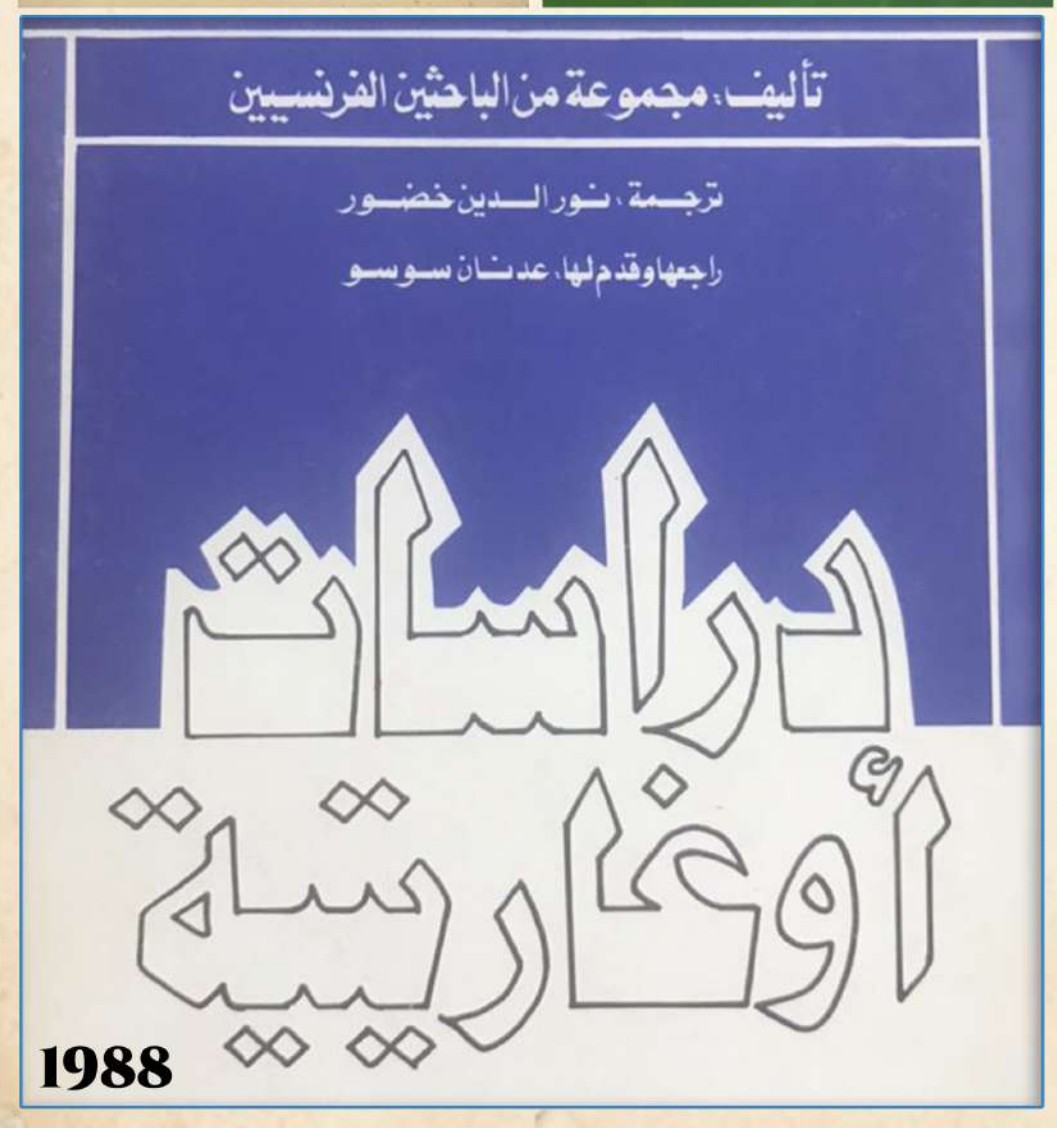

> إن الظلم الذي كان واقعا على العلويين شمل غيرهم أيضا، لأنه كان ظلما اجتماعي الأصل والمنبت وليس طائفيا أو مذهبيا، ولو كان كذلك لما دخل حافظ الأسد نفسه وآلاف الضباط العلويين إلى الجيش، وعرفت سوريا قبل انقلاب العسكر البعثي عام 1963 نوابا ووزراء وأساتذة جامعات وأطباء ومهندسين ومعلمين واقتصاديين وإداريين علويين.
>
> ميشيل كيلو (١٩٤٠ - ٢٠٢١)

فاصلة

اللاذقية بين أهلها وجيرانها

محمد منصور

رغم تعدد المدن الساحلية في سورية، لم يرتبط البحر في ذاكرة السوريين بمدينة أو ناحية، مثلما ارتبط باللاذقية، فقد كانت اللاذقية على الدوام معشوقتنا البحرية، ونافذتنا الأكبر والأجمل على دفء المتوسط، وعنوان شغفنا بالرمال الذهبية وزرقة الشاطئ، وعلو الجبل حين يحتضن الغابات كاحتضانه القرى والبشر، ثم يلتقي بالبحر وكأنه يهفو إليه... وحتى أدب البحر، لم يرتبط في الرواية السورية بمدينة، مثلما ارتبط باللاذقية، مدينة حنا مينة التي أتاها نازحاً من لواء إسكندرون، ثم ذاب بحبها، فكتب لها وعنها.

لا أدري من أطلق عليها (لاذقية العرب)، لكن الكتاب الذي وضعه إلياس صالح اللاذقي في أواخر القرن التاسع عشر، تحت عنوان: (آثار الحقب في لاذقية العرب)، يوضح أن اللقب يعود إلى العهد العثماني، كما أنني خلال بحثي، وجدت أن هذا اللقب كان متداولاً في صحافة القرن العشرين، وقد ورد -مثلاً- في رسالة مراسل بانياس، حول زيارة الموسيقار محمود عجان للمدينة عام 1935، والتي نشرنا صورة ضوئية عنها ص(33)، قبل أن يأتينا ناصري مهووس، فيقول لنا: "لاذقية العرب.. هذه تسمية جمال عبد الناصر دون شك".

لكن ربما أخفى هذا اللقب صراعاً حول الهوية، هوية المدينة التي كانت دوماً عرضة للتجاذبات، شأنها شأن كل المدن التي نُكبت بحب الناس لها وتنازعهم عليها، وخصوصاً أن المدينة تحولت أيام تقسيم سورية إلى خمس دويلات على يد الانتداب الفرنسي، إلى عاصمة لدولة رفض قسم من أهلها العودة إلى حضن الوطن السوري، بعد توقيع معاهدة الاستقلال مع فرنسا، فنشأ صراع بين دعاة الوحدة، ودعاة التقسيم والتمترس الطائفي، لكن بدوي الجبل الذي كان من أنصار التقسيم ثم انقلب عليه، جعل من اللاذقية مفتاحاً للروح السورية في قصيدته الذائعة والمغناة بلحن سيد مكاوي والتي مطلعها: "سقى الله عند اللاذقية شاطئاً مراحاً لأحلامي ومغنى وملعبا"، فقد افتتح باللاذقية، لكنه مرّ على ذكر كل المدن، والأقاليم السورية وحيّاها.

في كل الأحوال، سنجد في هذا العدد الخاص عن اللاذقية وتاريخها، الكثير من الوثائق والدراسات والتحليلات حول صراع الهوية والطوائف، الذي عاشته المدينة في غير حقبة من تاريخها، حتى صارت "عزيز قوم ذُل" في زمن حكم الحثالة الأسدية، لكن ما لا يمكن لأي سوري أن ينساه، عندما تُذكر اللاذقية: أهلها. فأهل اللاذقية لؤلؤة بحرها، ومَعلم من أبهى معالمها، بحر من الحنو والدفء والكرم والتسامي الذي لا يخطئ زائر المدينة عبقه. وقد عرفت الكثير من أبناء اللاذقية الكرام في زمن الشتات السوري، فما رأيت فيهم غير ما رأيته، عندما كنا نقصد المدينة في سنوات الطفولة والمراهقة؛ لنسبح في بحرها ونأكل مما يصطاده صيادوها، فهم الأبعد تعصباً وطائفية، رغم ما مُورس عليهم، وما عانوه من سوء الجيرة والجوار في حقبة الأسدية السوداء.

يأتي هذا العدد الخاص من (العربي القديم) عن "اللاذقية معشوقتنا البحرية"، وهي تتم عامها الأول من الصدور الشهري المنتظم الذي لم تخلف فيه مع قرائها من عشاق التاريخ موعداً. لقد استمرت (العربي القديم)، عبر جهد سوري مستقل، جمعته روح التكاتف الجماعي ونبل التطوع، وبالتأكيد فاختتام عامنا الأول بـ"اللاذقية" هو ختام مسكٍ لمدينة، طالما علّمتنا الصبر والتسامي على الجراح، وطالما أهدتنا الجمال والعراقة والمعرفة والأبجدية الأولى، وطالما اتسع صدرها اتساع البحر الذي جاورته لكل هموم الوطن السوري، فكانت مرآة صادقة لخلجات الروح الوطنية، مرآة أبنائها من كل الطوائف، كل حسب درجة ولائه للوطن والأرض، ولقيم الحرية التي كتب عنها ابن اللاذقية ميشيل كيلو يوماً: "الحرية هي النقطة التي فصل السوريون أنفسهم بواسطتها عن إجرام الأسدية وبؤسها، وشتلة المستقبل اليانعة التي تتنامى كل يوم، وفي كل خطوة يخطونها، حيثما كانوا".

رئيس الحكومة خالد العظم في زيارة إلى مدينة اللاذقية سنة 1950 لافتتاح ميناء اللاذقية الجديد، بعد فصل إدارة الجمارك بين سورية ولبنان والاستغناء عن ميناء بيروت، ويرى بجانبه محافظ اللاذقية خالد الداغستاني، والنائب أسعد هارون

حدَث في مرفأ اللاذقية عام 1971

شحنات أسلحة من الجزائر إلى الفرائيين تحتجزها السلطات السورية

جريدة (الحياة) 1971/7/6

الحياة
شحنات مصفحات ومدافع من الجزائر للفدائيين تحتجزها السلطات السورية في مرفأ اللاذقية
بغداد تطرد دبلوماسيين بريطانيين بتهمة الاشتراك في مؤامرة لقلب نظام الحكم

نسبت رويتر إلى مصادر سياسية في بيروت أمس قولها أن الجزائر أرسلت شحنة كبيرة من الأسلحة، بينها مصفحات ومدافع إلى الفدائيين الفلسطينيين. وأضافت أن الأسلحة وبينها أسلحة سوفياتية الصنع، قد شحنت إلى سورية لإرسالها إلى الفدائيين العاملين من سورية، ومن منطقة جرش في شمال الأردن. وقالت مصادر فلسطينية إن السلطات السورية، احتجزت الشحنة في ميناء اللاذقية، لكن لم تتوفر أية تفاصيل.

ويأتي كشف النقاب عن شحنة الأسلحة الجزائرية أمس مع بلاغ أذاعته السفارة الجزائرية في بيروت، وجاء فيه تأكيد لدعم الجزائر لحركة المقاومة الفلسطينية، وذلك بعد محادثات أجراها السفير الجزائري السيد محمد يزيد مع مسؤولي المنظمات الفلسطينية الممثلة في المجلس الوطني الفلسطيني في نطاق المهمة التي أسندتها إليها الحكومة الجزائرية.

رأي الصاعقة

وقال السيد زهير محسن، أمير سر منظمة الصاعقة التي يدعمها حزب البعث الحاكم في سورية، إن المعلومات المتوفرة لديه تقول أن هذه الأسلحة "هي عبارة عن مدرعات أرسلتها الجزائر إلى منظمة فتح" ولاتزال محفوظة في مرفأ اللاذقية، لأن مثل هذه الأسلحة في نظر السلطات السورية ليست أسلحة فدائيين". وأضاف رداً على سؤال في مؤتمر صحفي في بيروت الليلة الماضية، تحدث فيه عن التطورات الأخيرة في منظمة الصاعقة: "إن الجزائر أرسلت هذه الأسلحة لمنظمة فتح لأن "فتح" تبني قوات نظامية، وتخشى السلطة السورية أن يؤدي تسليح فتح بهذه الأسلحة إلى وقوع صدامات على الأرض السورية، بين فتح وجيش التحرير الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية".

وقال إن السلطات السورية لم تقرر بعد ما إذا كانت ستسلم هذه الأسلحة لفتح أو ستعيدها إلى الجزائر.

رسالة اللاذقية

احتجاج الشباب على اسكان الاشوريين

رشاد رويحة وماجد صفية يخطبان في الجماهير

الشباب القومي في اللاذقية يؤيدون الكتلة الوطنية

اللاذقية في ٢٨ ايلول لمكاتب الجزيرة الخاص:

الشباب القومي والاشوريين

كان يوم الجمعة الماضي يوما مشهودا لم يسبق ان رأت اللاذقية مثله فقد كانت الجماهير تتدفق الى جامعي الصغير والعجان كالسيل اثر اعلان الشباب القومي عزمهم على الاحتجاج عدا سكان الاشوريين واعمال سماسرة الطليان وبعث الحالة التي وصلت اليها منطقة اللاذقية من تدني وبؤس وكافي بتلك الوجوه التي كانت تملؤها الكآبة قد تبدلت الى بشر وكان النشاط يبدو على الناس بعد ذلك الجمود الطويل الذي استحوذ عليهم امدا غير يسير وكيف لايكونون كذلك وقد مضت سنون عدة والحرية الوطنية نائمة لايسمعون فيها لغوا ولا حسا سوى آهات واننا يتصاعد من نياط القلوب المتقطعة اذا كان لحركة الشباب القومي وخطوته هذه اثرها الكبير في هذا الشعب الطيب القلب الذي يلبي نداء الواجب الوطني في كل ساعة ودقيقة كانه الجندي الشاكي السلاح ولكن... ولكن القيادة فيه ان لم تكن مفقودة فهي مختلة اختلالا ادى الى هذه النتيجة التي يشكوها الجميع بمرارة ولقد امتلات ساحتا الجامعين الصغير والعجان في الداخل والخارج وساحات الطرق ومطل الشبابيك بالاف الناس وعقب الصلاة القى الاستاذان رشاد رويحة وماجد صفية خطابين ناريين وصفا فيهما ما وصلت اليه منطقة اللاذقية من بؤس وشقاء، وتعمد اذى وتثقل بالضرائب وصرحا عن جنوح الحكومة الى اهمال المسلمين توصلا لقتل الروح القومية في اللاذقية وملحقاتها ثم حملا حملة عنيفة على اسكان الاشوريين في سوريا وفي منطقة اللاذقية خاصة لان في اسكانهم المنطقة المذكورة معنى كبيرا ورمزا خاصا يفهمه المشتغلون بالقضية وقد استنكرا اعمال سماسرة الطليان الفظيعة وذكرا المسلمين والعرب بحادثة البطل الشهيد عمر المختار وغيرها من الفظائع التي ارتكبها الطليان في طرابلس الغرب وكان المصاولون يجهشون بالبكاء ويهتفون بين العبرات بالتهليل والتكبير وقد قرأ الاستاذ صفية بعد انتهاء خطبته على الجماهير برقية طيرها الشباب القومي الى المفوض السامي باسم هذه الجماهير فوافقت عليها الجموع مهللة مكبرة وهذا نصها:

نص البرقية

بيروت فخامة المفوض السامي:

آلاف الجماهير المحتشدة مع الشباب القومي في جامعي الصغير والعجان المؤيدة للكتلة الوطنية فوضتنا بالاحتجاج على اسكان الآشوريين في سوريا ومنطقة اللاذقية خاصة. نستنكر اعمال سماسرة الطليان نطلب وقف هجرة الآشوريين لبلادنا نرجو ابلاغ احتجاجنا لعصبة الامم ووزارة الخارجية الافرنسية

عن الشباب القومي

ماجد صفية - ابراهيم ادم قوز ثابت خواج - فؤاد ساعي - احمد شيخ خميس مواهب تيفه

المسلمون صف واحد

وكما لمحت انظار الجماهير ان الاستاذ صفية اعلن في خطابه ان المسلمين باللاذقية هم صف واحد وراي واحد وان الشباب القومي الذي تكلم باسمه لايعترف على حزب او مصلحة وان الذين يقومون بهذه الدعايات الفاسدة هم من عبيد القوة واذنابها بل هم من عمالها يبشرون لغايتها وينفذون ما آربها لكي يوهموا الامة انها منقسمة ومتفسخة ولكي يروق لهم الجو وتبقى الامة مغلولة الايدي لاتمشي وراء مخلص وعامل وقد كان لتصريح الاستاذ صفية دوي شديد في الجماهير واوساط المدينة وتقبله المخلصون بسرور وهنأوه عليه

الشباب يعضدون الكتلة

وهكذا انتهى يوم الجمعة بسلام وبدون ان تعكر الجو حادثة بسيطة فخرج الناس يتحدثون عن هذه الحركة التي قام بها الشباب القومي على هذا الشكل الذي لم يسبق للاذقية ان رأت مثله وبهذا اثبت الشباب انه العنصر القوي الوثاب المخلص الذي لا يهمه سوى مصالح الوطن وحق الامة وقد اعلن الشباب القومي تأييده للكتلة الوطنية منعا لكيد الدساسين وقطعا لالسنتهم التي لا يحلو لها سوى اظهار العرب بمظهر الفرق والشيع والانقسام وبرقية الشباب صريحة بهذا المعنى فليتق الله المغرضون في هذه الامة فكفاها ماتلقى من بؤس وشقاء

جريدة (الجزيرة) 1935/9/30

عبث الهوى

شعر: نديم محمد

صور الكون من خيالك أشكالا
أنت في الشرق حين أنظر أنت
أنت صمتي وأنت نطقي وشهقي
أنت لحني - لو كنت أعقل لحنا -
كيف يرقى الى النجوم ؟! : جناح
طلع الفجر ؛ واهتدى الناس للنور
رب عبء الهوى ثقيل وكم
أيها المشفقون لا تلمسوا الجرح
أنا ألبستك الحياة . وأسكنتك
آه ... بعدا للحس ، فالخمر يا

توالي .. مع الضحى والمساء
والغرب، وفي الماء والثرى والسماء
واضطرابي.. وخشيتي.. وحيائي
ورجائي لو كان لي من رجاء
مزقته : مخالب الانواء ؟
ووحدي أتيه في الظلماء
حمّلت بعد الهوى... من الاعباء
بصدري ، فتوقظوا كبريائي
دار الخلود : يا حوائي
ساقي . وصبرا حتى يتم انطفائي

مجلة (الجندي) 1963/8/13